حسن الكرباسي

مطالعات في الكتب المقدسة
«التوراة والإمبريالية»



تقديم هادي العلوي

مطالعات في الكتب المقدسة

" التوراة والامبريالية "

حسـن الكرباسي

مطالعات في الكتب المقدسة

" التوراة والامبريالية "

تقديم

هادي العلوي



حسن الكرباسي

مطالعات في الكتب المقدسة ـ التوراة والامبريالية

الطبعة الاولى ١٩٩٧

توزيع دار الكنوز الادبية

ص. ب/ ٧٢٢٦ ـ ١١ هـ ٦٥٣٥١٤

بيروت ـ لبنان

إهداء

أهدي هذا البحث إلى أساتذة وطلاب أقسام الفلسفة والتأريخ في الجامعات العربية كأيماءة نحو التفكير الواقعي والتحول من عالم الغيبيات إلى دنيا التكنولوجيا والكيمياء الصناعية

أيلول ـ ١٩٩٥

مناضل وطني عريق، خريج مدرسة النجف الوطنية. شهد في صباه ثورة العشرين ضد الأحتلال البريطاني وكانت النجف عاصمة الثورة، النجف وليس بغداد التي لم يساهم أهلها بأغلبيتهم التركية في مقاومة الاحتلال. وفي غضون السنوات العشرة التي مرت على ثورة العشرين تبدلت ظروف واوضاع واستجدت معطيات في السياسة كان منها انسحاب الفقهاء الشيعة من قيادة العمل الوطني بعد نفي الخالصي ووفاته في ايران وظهرت قيادات جديدة للكفاح ضد الانتداب من اوساط علمانية لم تكن بجذرية الخالصي ومواقفه الصلبة. وفي هذه السنوات العشرة بدأت رياح الماركسية تهب على العراق والعالم العربي وسرعان ما انبتت اغراسها ونمت وناهزت سن النضج في اعوام معدودات. وكان حسن الكرباسي (ضم الكاف وسكون الراء) خريج النجف من اوائل من تلقى نسمات الفكر الماركسي وبثها في صدره فاكتنز بها عقله وقلبه. ومما يسّر له ذلك أن الماركسية دخلت العراق

لتكون رافد مقاومة جديد ضد الاستعمار البريطاني وهو الوطني الذي عاش بنفسه ذكريات ثورة العشرين فما اسرع ما تعمقت فيه رسوس مشتركة للتحرر الوطني والاجتماعي. وكانت الماركسية قد اقامت لها دولة في الجناح الشرقي لاوربا، المصاقب للشرق، والآخذ كثيراً من منظومات قيمه ومؤسساته المشاعية. وكانت دولة للفقراء كما هي للنضال ضد الاستعمار العالمي فكان التمركس العراقي مزيج من وطني ثورة العشرين المقاوم للاستعمار البريطاني، ومن المناضل القرمطي ضد سلطة الأغنياء المتمثلة في الدولة التابعة. وكانت لحسن الكرباسي مساهمة في التأسيس الشيوعي الى جانب الرواد العظام يوسف سلمان وحسين الشبيبي وزكي بسيم ويهودا صديق وزكي خيري. وهو الوحيد العايش اليوم، أمد الله في عمره حتى يرى عملية تحرير العراق من حكم الفاشية المتلازم مع الحصار الامبريالي الامريكي على الشعب والتراب والماء.

كان قد بعُد عهدي بالعراق فلم اعرف من عاش فيه ومن رحل. مرت علي عشرين سنة لم اشرب فيها قطرة من ماء دجلة وانا البغدادي الذي لا يصبر عن عشق دجلة. وفي هذه العشرين سنة وُلد كثيرون لا اعرف اسماءهم واشكالهم بل اني لما استلمت صور اولاد شقيقتي الذين ربيتهم اطفالاً لم اعرفهم لولا أنهم كتبوا اسماءهم على التصاوير.. وبالتالي لم يكن لي علم بمكان هذا الرائد الكبير وما جرى له طيلة تلك السنين. وحين خابرني الرفيق العزيز حامد ايوب ليقول لي ان لك رسالة من حسن الكرباسي صرخت! صحيح؟ ومن اين جاءت الرسالة؟

وكانت الرسالة مخطوطة كتاب ألفّه حسن الكرباسي في هذه الاعوام

المتأخرة من عمره الشريف. عنوان المخطوطة "مطالعات في الكتب المقدسة". وقرأتها باعتناء مرتين فخيل لي اني اعيش في تلك السنوات العشرة التي توّجت بانعطاف الحركة الوطنية نحو التجذر الماركسي حيث تصدى الشيوعيون لقيادة الكفاح الوطني ضد الاستعمار البريطاني وصاروا هم لحمته وسداه. فقد تكلم حسن الكرباسي بتلكٍ اللغة النزيهة التي تكلم بها الشيوعيون الاوائل وهم يواجهون العدو المركب: الوطني والطبقي، عدو الوطن وعدو الشعب والكادحين الفقراء. وانطلق في كلامه من بديهيات العصر الحديث الذي يتماهى بالصراع المزدوج ضد الأمبريالية الغربية وضد الاستغلال الطبقي بكافة اشكاله وتنوعاته. ولقد وقف بموقعه هذا مركوز الذهن والوعي في مستوقد النضال ضد الاستعمار الغربي والنضال الاجتماعي مع فقراء وطنه وفقراء العالم الشرقي الذي ينهبه الغربيون.

علىان كتاب الكرباسي هذا ليس بيان سياسي من اللون المعتاد بل هو دراسة. وقد عنونه "مطالعات في الكتب المقدسة" واضفت اليه: "التوراة والامبريالية". لانه قائم على هذا الكشف الجوهري الهام، الذي التفت اليه قليل من الكتاب الا انهم لم يشبعوه تفصيلاً بالقدر الذي اجراه في هذه الدراسة. انها دراسة حقاً ولو أنها استعملت لغة سياسية مباشرة في الكثير من مفاصلها. وللكرباسي عذره فهو ليس كاتب محترف بل مناضل، وحين يتناول المناضل قضية ذات اصل اكاديمي لا يبرح ساحته لكي يتأكدم بل يبقى فيها ويواصل الكلام بنفس لغته النضالية، التحريضية، تلك التي جعلت لينين يعالج مشكلات فلسفية معقدة بلغة السياسة اليومية من غير أن يسيء الى حرمة الفلسفة وهيبتها لانه هو بدوره فيلسوف. وأنا على أي حال لا ادعو الى الاقتداء بلينين في امر كهذا لان ما يجوز للعبقري لا يجوز لسواه. وقد تشبه به كتاب عاديون فظلموا الفلسفة ولم ينتجوا

كتابة نضالية مؤثرة. والعبقري لا يُتشبه به بل يُستلهم. والكرباسي يمشي في ذلك على سجيته النضالية من غير أن يتشبه او يتكلف اسلوب ليس له. وقد عالج قضية ليست فلسفية لكنها ذات بعد اكاديمي على أي حال. ولعلها لو عولجت من قبل كاتب محترف لأخذت منحى آخر، الا انها لن تصل الى نتائج مغايرة. فالكرباسي يستند الى اسس قويمة في تناول الموضوع. وقد درس الكتب المقدسة الثلاثة دراسة مستوعب ومتبصر وتكوّن لديه بفضل ذلك وعي مقارن وحس مُتَوْرخ لما يدرسه ولم يترك استنتاجاً يسجله من غير أن يستند الى نصوص واضحة وناطقة بنفسها بحيث لم يكن في حاجة الى أن يلوي عنق النص كي يستجيب لمستبقاته.

قلت ان عمل الكرباسي يقوم على كشف جوهري للعلاقة بين التوراة والامبريالية. وهو لذلك يتجاوز مرحلة مكيافيلي بألوف السنين ليرجع الى كتبة التوراة حيث يقف المرء على المرجعية الكبرى للسياسة الغربية المعاصرة. وكان ماركس قد وصم العالم الغربي بانه يهودي حتى الصميم (العائلة المقدسة) وكأن الكرباسي أراد البرهنة على صحة كلمات ماركس فتطوع لتفكيك النصوص التوراتية في دراسة مقارنة اوصلته الى مكيافيللي ثم الى استعماريي العصر الحاضر. ولئن بدا ماركس قاسياً على اليهود، فان دراسة التوراة في هذا الاتجاه لا تستهدف إيذاء المشاعر الطبيعية لاي طائفة او ملة. وانما استسهل ماركس نقده الجارح هذا لانه يتكلم عن بني قومه. وبخلاف ذلك ليس من اللياقة ان يتطوع المرء لتجريح قوم آخرين في دورة افتنان وتعسف يسقط بها عيوبه على الغير كما فعل اسحق نقاش في دراسته المكتوبة عن الشيعة. ومن هنا لم يتحدث الكرباسي عن اليهود بل درس التوراة مع فرعيها اللاحقين الانجيل والقرآن. وهو لا يستطيع نقد كتاب لاحق من غير أن يذهب الى الاصل الذي جاء منه. على انه وجد

الاصل قد اشتمل على معظم المطاعن التي توجّه الى الفرع فأفرغ له جُلّ همه وفصّله تفصيلاً كما لم تفصل الآيات المحكمات. وقد بدا انه قادر على اقناعنا بوجود "فاشية دينية" تبدأ من التوراة وتستمر في فرعيها اللاحقين. هذه الفاشية هي سمة مشتركة للاديان من سماوية ووضعية. فالديانة الفرعونية كانت تتبنى القرابين البشرية. والهندوكية رعت المذابح الطائفية في الهند والبوذية كانت وراء القنانة في التبت بقرابينها البشرية وقتلها الكيفي للأقنان ولولا دخول جيش التحرير الملحد الى التبت لاستمر الدالاي لاما، الحائز على جائزة نوبل للسلام، في قنانته وقرابينه حتى اليوم.

وتلمس المؤلف خطوط التطور التي تفصل ما بين الكتب الثلاثة وفسر بها التعديلات الكبرى التي اجراها الكتابان الآخران على نصوص التوراة. وقد احتوى الكتاب في هذا المقام على نصوص بحث مقارن بين النصوص اوضحت بدقة ما يميزها عن بعضها مع اتصالها بخيط واحد. وانتبه الى الميزة التي ينفرد بها العهد الجديد، العهد الجديد بأناجيله الاربعة واعمال الرسل، دون رسائل بولص الاقرب الى روح التوراة، وللعهد الجديد ميزته على الكتابين الآخرين، فهو كتاب للروح الانسانية الخالصة في كفاحها ضد سلطة المال. ولقد تمنيت عليه لو انتبه الى الرس الشاعي للعهد الذي يعبرفي مجمل اصحاحاته عن حركة اجتماعية سعت الى جمع العبيد والفقراء تحت ملكوت واحد مناهض لملكوت الحكام والاغنياء. ومن يقرأ الاناجيل يفاجئه ذلك التناغم بينها وبين التاوية الصينية في عدائها لدولة الاغنياء ودعوتها الى اقامة "المجتمع العظيم" الذي تكون فيه الدولة وموظفوها في خدمة الشعب، وليس العكس كما هو حاصل حتى اليوم. لكن الكرباسي يعتمد في مورده الشيوعي على النصوص المترجمة من الغرب، شأن غيره من شيوعيي العالم العربي، وآمل ان تتاح لي فرصة لقاء معه

لكي احدثه عن الشيوعية الآسيوية التي تمتد الى ثلاثة آلاف سنة في الصين، والفين سنة في منطقتنا، ولكي اقص عليه تجربتي في الصين التي عشتها وهي في عصرها الشيوعي الذهبي الذي انتهى عام ١٩٧٩. ما أريد قوله بايجاز ان معجزة الشيوعية الصينية انما كانت بفضل المزاوجة بين الحكمة المشاعية للصين وبين الماركسية حيث خدمت "الماركسية المصيَّنة" كأداة ضاربة لاقامة المجتمع العظيم الذي دعا اليه حكماء التاو[١].

ان تحليلات الكرباسي لفكر التوراة ومتابعته في السلوك الامبريالي والصهيوني هي الأحدث في باب الدراسات التوراتية. وهو في بحثه المقارن يذهب الى كتاب المسلمين فيحمّله مسئولية اعادة انتاج الفكر التوراتي. وقد استعرض الآيات التي تعطي بني اسرائيل الافضلية على البشر وكأنها تردد شعار "شعب ا لله المختار" وأشار الى موافقة القرآن على اجتياح فلسطين في معادلة مقلوبة يصبح فيها الكنعاني الضحية جباراً والعبراني المعتدي مؤمناً ينفذ اوامر ا لله. وقد جرت الاساطيرية الاسلامية على هذا النهج بحديثها عن رد الشمس الى يوشع. ويوشع خليفة موسى الذي تولى اجتياح فلسطين وكان قد دخل احدى مدنها فقارب النهار الانتهاء قبل أن يفرغ من ابادة اهلها فرد ا لله عليه الشمس لكي يكمل مشواره فيها. ولان الايمان اعمى والعقيدة عمياء او كما يقول الغزالي حجاب للعقل، لم يبصر مروجو الاساطير الفحوى الهمجي لاسطورة رد الشمس، فالعقيدة تقبل كل شيء ينضوي تحت جناحها. وقد اعاد الشيعة انتاج هذه الاسطورة التي

---

[١]- انا من هنا لا اعتبر من الهرطقة ان يشكل مسيحيون مؤمنون حزباً يسمونه "الحزب الشيوعي المسيحي" فهو اقرب الى الاناجيل الاربعة من "الحزب المسيحي الديمقراطي" الذي يشكله الغربيون لادارة رأسماليتهم المتوحشة

تكررت عندهم لعلي بن ابي طالب، وكانت هذه المرة لفوات صلاة العصر بسبب انشغاله في معركة. ولما انتهت المعركة وجد الشمس قد غابت وفاتته الصلاة فاومأ الى الشمس فعادت فصلى العصر ثم غابت بعد انتهاء الصلاة. ولابن ابي الحديد المعتزلي شارح نهج البلاغة قصيدة يمدح فيها علي بن ابي طالب يقول فيها:

يا من له ردت ذكاء ولم يفز بنظيرها من قبل الا يوشع

وابن ابي الحديد رجلٍ عقلاني ومن المستحيل ان تكون الاسطورة قد عبرت عليه لكنه ايضاً رجل انتهازي وقد عاش في رعاية الوزير الشيعي ابن العلقمي فكان يتملقه بهذه القصيدة وغيرها، ومن ذلك شرحه لنهج البلاغة، ولو أن الشرح جاء من جهته عملاً ثقافياً راقياً ولم يخضع فيه للقوالب الاعتقادية. ونجد الاسطورة التوراتية تتردد على لسان شاعر متنور مثل احمد شوقي الذي قال في مطلع قصيدة عن امجاد مصر خاطب فيه الشمس كرمز للزمان:

قفي يا اخت يوشع خبرينا احاديث القرون الاولينا

ولا غبار على استعمال الرموز الاسطورية في الادب والفن، والاسطورة منبع خيال للادباء والفنانين لكن كان على احمد شوقي ان ينتبه الى المغزى الهمجي العدواني لهذه الاسطورة بالذات فينفر منها ولا يوظفها في شعره الانساني الجميل.

في قراءتي المتأنية لمخطوطة الكرباسي وقفت على امور تستدعي النقاش بعضها قد يكون من عدم شمول الاحاطة بمصادر الفكر والتاريخ وبعضها من مسلمات السياسة وهذه ملاحظاتي على جملة منها...

١ ـ تحدث المؤلف عن الدعوة الى الزهد في الاسلام واعتبرها من

مثبّطات النهوض في مبادئه الاجتماعية. وهذه الدعوة انما تبلورت ضمن هذا الخط في الوسط الديني الخالص، وغالباً، في عصور الانحطاط. وينبغي الانتباه الى مبدأ معاكس تماماً كان قد راج في أوان الخلافة الراشدية وتحدد كمذهب في معسكر المعارضة وهو مبدأ زهد الحكام. ويختلف هذا المبدأ عن الدعوة الدينية الى الزهد لأنه يجعل الزهد إلزاماً للحاكم دون الرعية وقد قننه علي بن ابي طالب بقوله: إن ا لله فرض على ائمة العدل ان يقدّروا انفسهم بضَعَفة الناس حتى لا يتبيّع بالفقير فقره (اي لا يهلكه). وكان علي ينهى عامة الناس عن الزهد. وهو نفسه لم يكن من الزهاد قبل الخلافة وانما تزهد بعد أن تقلدها. وهكذا كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير أموي مترف ومغالي في النعيم والتأنق، فاقلع عن هذا كله بعد استخلافه وعاش عيشة رجل فقير. وقد ظهرت تطبيقات للمبدأ عند قرامطة السواد (العراق) وقرامطة العَرْبيا وخوارج عمان والمغرب. وفي العصر الحديث سلك نفس المسلك بلاشفة روسيا الاوائل وقادة جمهورية الصين الشعبية، وفيتنام الشمالية. ولا بد لهذا المبدأ ان يُراعى في تجاربنا الشيوعية المقبلة لانه من لوازم الحكم الشعبي كما أنه يلعب دور المطهِّر ضد النزعة البيروقراطية والارستقراطية في اوساط الحكام والقادة والمثقفين.

٢ ـ وتحدث المؤلف عن دعوة الاسلام الى الخضوع لولي الامر ـ الحاكم بوصفها من كوابح الثورة على النظام. وهذا هو الفهم المألوف لمبدأ الطاعة في الاسلام كما تقرر في الوسط الديني إبان العصر العثماني. وأصله في الاسلام هو الطاعة المشروطة وفقاً لمبدأ: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وقد درستُ هذه المسألة في مجلة النهج ـ احد اعدادها لعام ١٩٨٦ ـ وثبّت في تلك الدراسة ان الذي جرى عليه الامر في القرون

الاولى، وفي عموم معسكر المعارضة هو الطاعة المشروطة للحاكم العادل وعدم الطاعة مطلقاً للحاكم الجائر. ان أوليات الفكر الاسلامي ليست خالصة للدين فهو نتاج مشترك للعقيدة الدينية وللصراع السياسي والاجتماعي بما يمنع عنه الانسجام والاحادية العقائدية الصارمة.

٣ ـ ومثله حديث الجبرية الاسلامية وهو متناقض حتى في القرآن. وقد اعتمد المعتزلة وخصومهم على نصوص القرآن نفسها للدفاع عن اطروحاتهم المتباينة. وتبدو الجبرية في الاسلام الاول وسيلة تعبئة لاستسهال التضحية بالمال والنفس. وقد التفت الى ذلك بليخانوف في احد فصول كتابه "دور الفرد في التاريخ" فأشار فيها الى ان الجبرية الاسلامية لعبت دور المحفز لا المثبط. ويتحمل النص القرآني مع ذلك مسئولية الخلط بين حاجة تعبوية راهنة وبين تقرير مبدأ سيكون له أثر سلبي بعد عبور تلك المرحلة واستقرار العقيدة في أُطرها التقليدية.

٤ ـ قال المؤلف ان اكثرية الشعب الامريكي لا تعارض اقامة دولة فلسطينية ولي على هذا القول مأخذين: الأول ان اكثرية الامريكان هي التي تحدد السياسة الامريكية لانها تنتخب بالاقتراع الحر والديمقراطي والمباشر رئيسها كل اربع سنوات. والرئيس الامريكي ليس كالرؤساء في العالم الثالث ينتخب نفسه بنفسه بل هو خاضع للناخب الامريكي. واذا لم نوافق على هذه الحقيقة سيكون علينا القول انه لا توجد ديمقراطية ولا برلمان ولا انتخابات في الغرب. في حين انها موجودة بكاملها وبمطلق حريتها.. الثاني اننا لا نجد في امريكا ما يصدق عليه وصف شعب كما نقول شعب بريطاني وشعب فرنسي وشعب صيني. فالولايات المتحدة دولة مهاجرين ولا تختلف في هذه الجهة عن اسرائيل. ولم يتبلور في

امريكا مجتمع يتجاوز عَتْبة المعاشر المتباينة، ولا مفهوم امة لها تقاليدها المشتركة وتراثها الحضاري وتاريخها العريق. بل ان اليهود على تشتت بلدانهم وقومياتهم ولغاتهم لهم من القواسم المشتركة ما ليس للامريكان. ويعكس الانفلات الامريكي الراهن هذا الوضع بجلاء فسلوك الامريكان في الخارج والداخل غير محكوم بأي ضوابط يمكن ان تمليها تقاليد أو قيم موروثة او فلسفة حاكمة على الوعي، والولايات المتحدة لم تساهم في الفلسفة الحديثة الا بنصيب ضئيل وهامشي، ويتصرف الامريكان في علاقتهم بالخارج في طلاق مطلق مع جميع المبادئ التي تحكمت بهذا الشكل او ذاك في سلوك الفاتحين ذوي الخلفيات المتحضرة في شتى ادوار التاريخ.

اقف عند هذا الحد في مداخلتي لكتاب المعلم حسن الكرباسي تاركاً للقارئ ان يقرأه في تأني كما قرأته ليقف منه على حقائق مرشدة في هذه الايام التي تشهد مخاضات نهوض في مختلف المجالات بعد ان خلت من اهلها سنوات قلائل سنلغيها من حساب التاريخ.

هادي العلوي

معرة النعمان

مقدمة

هـذا البحـث هـو مـن وحـي مطالعـاتي في أجـزاء مـــن الكتـــب المقدسة، التوراة والإنجيل والقرآن. أنـه بحـث مقـارن فيمـا بـين تلـك الكتب وفلسفتها وأثرها في مجرى تأريخنا الحي الحديث. كما أنه يبـين لنا من أين اقتبست الكتب المقدسة موضوعاتها ؟

أرجو أن يجد القارئ العربي خصوصا ذاك الذي لمّا يـزل يؤمـن، حتى زماننا الحاضر، أن في إتباع الكتب " السماوية " الثلاثـة حرفيـا، زوالا للتناقض بين النـاس وسيادة للعـدل الربـاني علـى الأرض، وأن يتوصّل فيما سيقرأه في هذا البحث سواء في نصوصه المقتبسة من تلك الكتب الثلاثة، أو مما أستخلصتها من الأحداث والتناقضات الحالية في مجرى السياسة الدولية التي نعيشها ومنها فاجعـة الشـعب الفلسـطيني، الى أنه فضـلا عـن أن تلـك الكتـب لم تنجـح في أي زمـان مضـى في استتباب السلم بين الناس فأنها في زماننا الحـاضر المستمر في التطـور والتدهور معا قد أمست ليست أقل قدرة لتحقيق الوئام وحسـب بـل

أنها على العكس من ذلك، اذ بسبب تبدل الظروف التأريخية صارت محتوياتها تستخدم خصوصا عند البعض كسبب ظاهره صراع روحي حول العقيدة، في حين أن حقيقته تتضمن عدوانا صارخا كما هو الحال في النزاع الأسرائيلي ـ الفلسطيني. أو ما يثار هنا وهناك من نزاعات بين أهل العقيدة الدينية الواحدة، أو ما يسمى بالطائفية .

إن الصراع في حقيقته خصوصا في عصرنا الحالي هو صراع بين غالب ومغلوب، صراع قائم على أساس اقتصادي صرف، وإن لبس ثوبا آخر، يستهدف الاستحواذ، بكل السبل بما فيها العنف واستعمال القوة، على منابع النفط ومواقع الخامات والمواقع الاستراتيجية العسكرية أيا كان أصحابها الشرعيين. وأنه صراع لتسخير القوى المنتجة الرخيصة، كالسود في جنوب افريقيا والفلسطينيين في أرضهم المحتلة والشغيلة الرخيصة في أمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا ـ ويجري كل هذا في الحقيقة وفق قاعدة تقول أن " الحق للقوة " ووفقا لفلسفة الكتاب الأول من الكتب المقدسة دون الكتابين اللاحقين له، دون الجهر بذلك.

ان هذه المقدمة تتضمن باختصار رؤوس المواضيع والخواطر التي جاءت في محتويات البحث المشار اليه وسيمر القارئ بها عند قراءته المتن وخلاصتها كالآتي :

١ ـ الكتب المقدسة هي شهادات متناقضة :

ان الكتب الثلاثة فيما تحتويه في الحقيقة هي أشبه بشهود إثبات أمام العالم. فثلاثتها تقول بوجود الفاعل الواحد " الله " . لكنني

وجدتها تختلف في وصف أفعاله وغاياته وهو إختلاف يُفسد الشهادة ويلغي صحتها وبالتالي لا يقيم الدليل على الإفتراض بوجود ذلك الفاعل بذاته ولا قبول ما نسب اليه فيها. فهي على رأيي قد وقعت في تخبُّط انعكس على عمل وعلاقات المجتمعات البشرية من أهل الكتب الثلاثة وأعاقها، خصوصا في الوقت الحاضر، عن التعرف على الحلول الصحيحة لإحلال الوئام بينها، لا بل ان ما جاء في أحدها خصوصا، صار يتخذ كمبرر للتخاصم والعدوان.

٢ ـ سنة التطور قانون أساسي طبيعي :

لعل ذاك الذي لا يزال يتمسك بالغيبيات رغم تلمسّه خسرانه، وضياع حقوقه، أن يتلمس أيضا من الواقع القاسي بأن الحلول الصحيحة لمشاكل الشعوب المتأخرة الاجتماعية منها والاقتصادية، إنما تكمن في استيعابها أولا لسنة التطور الاجتماعي وفي فهمها عملية النشوء والارتقاء وبالعمل على كسب المعرفة العلمية الحديثة من فيزياء وكيمياء وصناعة وزراعة، وفي فهم أثر علاقات الإنتاج وأساليبه الفنية على رفاهها الاقتصادي وليس في افتراض وجود إرادة أسطورية من " فاعل خاصٍ" ذات مقاصد متنافرة، وانها كما تقول بعض تلك الكتب قد خططتْ مقدماً حركات الناس بل وحتى أعمارهم وفق منهج مبرمج منها سلفا ـ (وما من حبة تسقط على الأرض الخ..). لقد تأكدت نتيجة لمطالعاتي هذه واستقرائي المتواضع ان العلة تكمن في معرفة مسيرة التطور الواعي ـ تطور الإنسان، بالحقيقة معرفة سبل تطوره ـ خلال ظروف ووقائع مراحل حياته وقدرة وسائل إنتاجه.

فكلما أدركت تلك الشعوب الطامحة والمتأخرة منها خصوصا هذه الحقيقة وعملت لها بوعي أسوة بالشعوب المتقدمة زادت قابليتها على التقدم والوصول إلى ما ينفعها جميعا.

٣ ـ أهداف عدوانية ؟

ان أهداف التوراة بشهادة نصوصها هي أهداف عدوانية وسيدرك القارئ من قراءة تلك النصوص ـ ان إسرائيل التي إغتصبت أرض فلسطين قد قامت متذرعة بأساس ديني صرْف يستند الى نصوص التوراة. وان قوانينها قائمة على أساس نصوص ذلك الكتاب التي هي تضامنية بين أهله على أساس العرق والدم وإعتدائية ضد الأغيار وان كتابهم " السماوي " المقدس يبيح لهم الحرب الاعتدائية كمبدأ لهم بل ويأمر بها بأسم الرب ولمصلحتهم، مع استعمال كل الطرق والسبل ألتي أقلها العنف والأرهاب والحيلة والاغتيال ضد كل من ليس من آل يعقوب، إذ على حد ما جاء في كتابهم هم المفضلون على البشرية جمعاء. والتوراة تقول لهم ان حياة كل فرد منهم دنيوية فقط ويجب عليهم إنتهازها، إذ ليس بعد حياة الفرد غير العدم : أنظر/ جامعة/ أصحاح ٣ : ١٩، ٢٠، (سليمان بن داود)؛ تثنية/أصحاح ٧ : ١٤

٤ ـ المسيحية صرخة من أجل الحق والعدل :

اني أرى ان المسيحية كانت صرخة العدل ضد تلك المبادئ الضالة وغير الإنسانية التيّ جاءت بها التوراة. لقد ولد المسيح كواحد من آل إسرائيل وفي مجتمعهم الديني، لكنه بَشَّر ضدً عنصرية التوراة وتناقضها مع العدالة الإلهية وهي عامة لكل البشر وليست خاصة بآل

إسرائيل وحدهم. وقد دعا للسلم بين الناس ونَبذَ الإعتداء وإحتقر المال والتكالب عليه. لذا فقد اعتبره آل إسرائيل خارجا على تعاليم التوراة ومن أجل ذلك قدِمَ للصلب.

٥ ـ مسيحيون يأخذون بفلسفة التوراة دون الإنجيل:

ان تعاليم التوراة وفلسفتها الاعتدائية ، إضافة الى غيرها من الأسباب الاقتصادية والتأريخية قد تلاقت مع أغراض وسياسة الدول الصناعية، الاستعمارية منها خصوصا، فاستوحت هذه الأخيرة منها، منذ الثورة الصناعية في أوربا وخلال القرن الثامن عشر وما بعده، سياستها في السيطرة وأخذت بها فعلا. والمثال الأول يصح ان نعتبره انكلترا بامبراطوريتها الكبرى، إذ تدفع هذه الدولة عام ١٨٢٧ بدزرائيلي أن يكون رئيسا لوزرائها. وهكذا تكون معظم الدول المهيمنة المعاصرة وهي على حد قولها مسيحية العقيدة، قد وجدت في نصوص التوراة وفلسفتها ما يبرر لها معنويا حق السيطرة الاقتصادية والتفوق العنصري ضد أكثرية الشعوب على الأرض رغم مسؤولية أهل التوراة عن دم المسيح ورغم ان المسيح قد شجب العنف والاعتداء واستبعد أهل المال من شمولهم برحمة ا لله إذ قال " لا تقدرون أن تخدموا ا لله والمال "ـ إنجيل متى أصح ذ٦٢: ٤٢ الخ.

ولعل من ظواهر إعجاب أهل الهيمنة بفلسفة التوراة هو الحلف الواقعي " المقدس " بين أقطاب دولة آل يعقوب وبين أقطاب المال الأمريكي خصوصا إذ فيه مصداق لما ذهبت اليه ويدل على أخذ أهل السيطرة العالمية بمبادئ شريعة التوراة لما في الأخيرة ما يبرر السيطرة

والاستغلال الفاحش الذي هو بيت القصيد لهم.

٦ ـ مصالح إقتصادية وليست تطابقات دينية :

ان المرء ليحار أحيانا في معرفة حقيقة ومواطن الأمور، مثلا عندما يقوم بعض أهل الاسلام كالسعودي بتمويل حركات عصيان ضد الحكم القائم في دولة ما في أفريقيا مثلا ويمولها بتكاليف السلاح لكي يجعل الأصدقاء في أمريكا ممنونين لهذه الأريحية الإسلامية العربية. وان اولئك الأصدقاء ارتاحوا دون شك أيضا لأريحية أعدائهم الأئمة المسلمين في إيران لمساعدتهم حركات الأفغانيين في دفاعهم عن " الإسلام " ـ لكننا إذا قيمنا الأمور بنتائجها، يتبين لنا ان المساعدتين الإسلاميتين السعودية والإمامية إنما تصبان في إناء أمريكي واحد.

ان أقطاب الحل الأمريكي يأخذون اليوم بيدهم اليمنى آل يعقوب ويأخذون ـ حاليا ـ بيدهم اليسرى آل سعود المدافعين عن الاسلام. والثلاثة هم مثال للاتحاد في خدمة المال المسيطر الذي ينوء تحت ثقله سكان العالم المنعوت بالعالم الثالث. من هذا يستطيع المرء ان يستنتج بجلاء ان القوى المهيمنة ـ " المسيحية " وأعوانها وخدمها أيا كانوا إنما يتخذون من الكتب الثلاث ، بحسب الظروف، وسائل لتغطية منافع إقتصادية محضة وليست لغايات ذات مثل عليا كما يدعون. وللتمويه على الناس يصفون أنفسهم بـ " الموحدون أهل الكتاب " لستر وحدة مصالحهم الاقتصادية وان لم تتساوى أنصبتهم فيها. فهم يتخذون من تلك الصفة ـ إلا قليل منهم ـ وسيلة لاعتصار الشعوب وحرمانها من حقها في العمل والعيش منه ويملأون الأرض

صراحا بدفاعهم عن حقوق الانسان وعن حرياته الديمقراطية.

٧ ـ إجتهاد يقع لصالح الامبريالية :

بدافع التحرر والتخلص من هيمنة الامبريالية، ظهرت قبلا وتظهر الآن خصوصا في الأقطار الاسلامية تصورات وحركات، بعضها مشبوهة، تدعو للعودة للأخذ بالنصوص الحرفية للقرآن كدستور ينظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيما بيننا وبين الأغيار في عصرنا الحالي ولنقف كما يتصورون بوجه الامبريالية والصهيونية غافلين اننا نعيش على الأرض ليس وحدنا، بل في عالم شعاره " الحق للقوة " وان لم يعلن عن ذلك علنا. فمن يحمل سيفا بيده والحق بجانبه يفشل أمام حامل الرشاش وإن يكن هذا الأخير هو المعتدي على الحق. إن القوة لا تعني مجرد السلاح. إنها تعني الكثير، الزراعة الحديثة، الصناعة، العلوم العصرية والدعوة للنهوض بها. في حين ان الدعوة للمثل العليا المجردة تخدير أكثر مما فيه تحذير وهذا يقع في صالح الأغيار. ولعل تطبيق القرآن كدستور واحد في نجد والحجاز منذ حركة الشيخ المرحوم محمد عبد الوهاب (الوهابية في نجد) يكون مثالا لها ويبين في التطبيق مقدار ثورة هذه الدعوة ضد الامبريالية. وان هناك من يعمل عن قصد ليجعل من شعار التمسك بالاسلام دعاية لأغراض أخرى لصد الخطر الآتي من الشرق. كلنا نعلم ان إفتراض وجود الخطر الشرقي على بلدان العالم الثالث هو من بدع حلفاء آل صهيون وأعوانهم وغرضهم من هذه المزاعم واضح وجلي، هو إشغال شعوب هذه البلدان بجبهة ثانية موهومة لصرف أنظارها عن

السيطرة والهيمنة الاقتصادية والعسكرية الواقعة عليها ولابقاء أهل تلك السيطرة هم المستحوذين على المواد الخام والنفط وغيرها في العالم الثالث ولصرف الإنتباه عن خطورة قواعدهم وأساطيلهم العسكرية التي تعد بالآلاف والتي تضر دون شك بالعلاقات الطيبة بين الدول.

٨ ـ تعاطف الإمبريالية الكاذب مع الإسلام :

ان سيرة الامبريالية وموقفها اليوم ـ وقبلها الآستعمار المباشر ـ من الدعوة الدينية الداعية لإتخاذ القرآن كدستور سياسي وإجتماعي معروف بالتقلب ومتراوح بين التأييد والرفض حسبما تقتضيه مصالحها. حتى أنها تبدو أحيانا كمن يجمع عندما تقتضي مصالحه الصيف والشتاء في آن واحد على سطح واحد.

لقد أثارت الامبريالية خلال الأربعينات الشعور الديني الاسلامي والطائفي في الهند فوصلت من ورائه الى تقسيم الهند الى دولتين، الهند وباكستان.

وعندما أراد الملك الأفغاني الأسبق أمان الله خان في نهاية العشرينات من هذا القرن، بعد عودته معجبا من زيارته لباريس، الأخذ بمعالم الحضارة العصرية فبدأ بفتح المدارس لمكافحة الأمية وبدأ بتعليم البنات، إنبرى له جواسيس وأعوان الإمبريالية في حينه باسم الدفاع عن الاسلام وشعائره خيفة أن تتسرب عدوى التحضر من الأفغانيين الى الجارة الهند درة الاستعمار في التاج البريطاني كما كانوا يسمونها. ان الإمبريالية كافحت الملك أمان الله خان تحت

إسم الاسلام الذي يحرم السفور، وبحجة ان الملك خرج عن شعائر الاسلام في مجتمع مسلم غيور ليبقى هو وجارته الكبرى في ظلمة أحضان بريطانيا العظمى. وهكذا نجحت في إبعاده عن الحكم وإبقاء أفغانستان تحت نفوذها وفي ظلمات الجهل والغفلة.

وتقوم اليوم دولة في القارة الأمريكية التي إنتقلت اليها عمادة الإمبريالية، ليس بالسر فقط بل بصراحة وعلانية أيضا بحسب الأحوال والظروف وحتى خلافا لمواثيق هيئة الأمم بالتدخل في شؤون الدول الأخرى الداخلية منها والخارجية وتحت ستار من تلك المواثيق تمد بالمال والسلاح المتقدم جدا وتدرب جماعات وفرق معينة مثلا ليحاربوا من داخل باكستان باسم الدفاع عن الاسلام ضد حكومة جارة لهم شرعية ومسلمة وعضوة في هيئة الأمم المتحدة التي دستورها يحرم تدخل الغير في الشؤن الداخلية لأعضائها ويمنع الاعتداء من أعضائها. ولم تتحرج تلك الفرق من تهديم كل ما أمكنها بل سممت حتى مياه الشرب في مدارس الأطفال في أفغانستان على ما جاء في الأخبار العلمية ثم انتقلت للاقتتال بينها فمزقت البلاد وقتلت العباد وجعلت الحياة مستحيلة في ذلك البلد الآمن.

٩ ـ موقف أمريكا الرسمي من حق الشعب الفلسطيني ومن شعوب إسلامية أخرى:

منذ أربعين عاما تقف الإمبريالية خصوصا عميدتها الأمريكية (المسيحية) جنبا الى جنب مع من قدم المسيح للصلب ولما يعتذر عن

فعلته بعد ـ بعين الوقت فان لأمريكا علاقات متينة مع الدول الاسلامية مثل السعودية والباكستان وغيرها ولها فيها وفي الدول العربية الأخرى مصالح إقتصادية كبرى لكن موقفها ليس لصالح الفلسطينيين المسلمين منهم أو المسيحيين، بل أنها مع الأسف قد ساهمت في أوائل الثمانينات عسكريا جنبا الى جنب مع الجيش الاسرائيلي في طرد الفلسطينيين بالقوة من لبنان حيث ذهبت للمطرودين ضحايا كثيرة وما زالت أمريكا حتى اليوم تماشي إسرائيل بشكل وآخر في معارضتها إقامة الفلسطينيين دولتهم الديمقراطية على الأقل في الجزء المخصص لهم بموجب قرار التقسيم الصادر عن هيئة الأمم المتحدة ـ بما فيهم الولايات المتحدة الأمريكية .

أنا مقتنع ان أكثرية الشعب الأمريكي لا تعارض إقامة دولة فلسطينية على أرضهم الفلسطينية وعلى الجزء الذي عينه قرار التقسيم المشار اليه آنفا. وأما الدول الأوربية الأخرى فلم تصدر لا منها ولا من شعوبها معارضة ما ضد قرار التقسيم المذكور فهل تأتينا الأيام بجديد من أمريكا ؟ ان الإمبريالية تدعي الإيمان بشريعة المسيح والانتساب اليها في حين ان المسيح لم يرض بالاغتصاب واعتبر حقوق الانسان حقوقا عامة دون تمييز في العرق أو الجنس.

انه لظاهر وواضح من مجرى التجارب والشواهد ان الصيغ الدينية قد استخدمت وتستخدم في الغالب كوسائل للتسلط والاستغلال أو لتخدير الشعوب المغلوبة. لذا فانها تبدو ـ خصوصا حسنة النية ـ وكأنها عاجزة عن نشر العدل وتطبيقه بين البشرية دون تمييز بينها. وعلى ما أعتقد ان الوقت قد حان لأهل جميع الكتب

لمراجعة ما بين أيديهم منها - خصوصا الاعتدائيين والعنصريين منهم - وذلك على ضوء المصالح المشتركة لجميع الشعوب والأخذ بسنة التطور والارتقاء لصالح البشرية عموما. ولعل من صور التطور المؤمل، ان هناك على ما نسمع أناس في إسرائيل وهم من أهل التوراة لكنهم لم يعودوا يتصورون تطبيقها حرفيا نظرا لاختلاف الظروف التأريخية لذا فهم يعملون لصالح التقارب في القضية الفلسطينية.

١٠ ـ أمثلة أخرى تصلح للعبرة " سخِّرْ عدوك لمصلحتك":

قبل عامين قامت الإمبريالية الحامية لأهل التوراة وصديقة المسلمين معا بضرب المسلمين في ليبيا وضربت بالصواريخ مقر رئيسها لأنه وشعبه متمسكون بالاسلام والعروبة والاستقلال لهم.

كما سبق لأمريكا ان قابلت في أوائل الثمانينات إيران بالتهديد العسكري المباشر (واقعة طبس)لأن الأخيرة طردت الشاه الذي كان سائرا في ركابها ويعمل لمصلحتها وكاد يؤدي ذلك التدخل الى الاخلال بسيادتها ولم يشفع لها تمسكها بالاسلام المجرد. واخيرا ورطوا العراق وايران البلدين الجارين المسلمين في حرب ضروس كانت نتائجها لصالح أهل الهيمنة، على المنطقة ونفطها وزيادة مبيعاتها من السلاح وغيرها.

فهذا الخلط والتنافض من أهل الهيمنة وإستغلال الأديان تارة وإثارة القوميات على بعضها تارة أخرى وتحريضها أقزاما مدنيين أو

عسكريين ومساعدتهم على إستلام السلطة هنا وهناك على مستوى القارات، وما هذا كله إلا لخدمة مصالحها وليس فيه من الجهة الأخرى غير الضررعلى المسلمين وغير المسلمين من شعوب العالم وخصوصا على الحركات الوطنية الديمقراطية فيها.

ربما كان من الأصوب على ايران بعد ذالك التهديد المباشر ضدها في طبس ان تأخذ حكومتها العبرة حينذاك وتبقى على الحياد سيما أنها كانت تعلن على لسان المسؤولين فيها شعارها القائل أن امريكا عدوتنا، وأن لا تتورط وتمول وتساعد جنبا الى جنب مع الأمريكان العشائر الأفغانية بالسلاح وتسعر فيها حربا أهلية بين المسلمين يجني ثمراتها بالتالي ذوو الهيمنة العالمية.

أما القول بأن حكومة الأئمة انما تساعد بعملها هذا الأسلام ومسلمي افغانستان فهو إدعاء عقيم يشترك في تكراره معهم الأمريكان ايضا لتبرير إستغلال تلك الحركات العسكرية لمنافعهم الخاصة. ربما كان الأئمة يعملون حسب تطبيق حرفي للأسلام دون الألتفات الى النتائج الفعلية الواقعية ومن الذي سيجنيها فيقعون في خطأ في التطبيق وهذه ظاهرة ليست مقتصرة على الأئمة في ايران بل تشمل معظم الحركات السياسية الدينية الأتجاه وبالتالي فإن الرابح الفعلي من اتباع الأسلوب الديني حرفيا في الأعمال والمقاصد السياسية، هي الإمبريالية.

وبالمناسبة اقول لا يستبعد أن اسرائيل ترتاح لظهور بعض الحركات دينية الطابع متشددة في شعاراتها وتسميهم(المتعصبون) وتنسب اليها تصميمهم على إزالة اسرائيل من الوجود لتأخذ من هذا

الشعار سببا ظاهريا للتعنت في موقفها من التسوية ووسيلة للبطش والتنكيل بالفلسطينيين. فالانتباه لمثل هذه المناورات أمر في محله. ومن الضروري أن يتفهم أولئك الذين تتشكى منهم إسرائيل أحيانا لأن حركتهم ذات طابع ديني وتسميهم بالمتعصبين (في حين أن الأكثرية الساحقة من الأسرائيلين أنفسهم من المتعصبين العرقيين) وتحاول أن تأخذ من تصريحات بعضهم ذريعة للبطش بالمغتصبة أرضهم في حين أن حقهم في أرضهم حق تأريخي مشروع. مع ذلك فالحكم على صحة إسلوبهم يبقى معلق ومقرون بما تأتي به النتائج. فاذا إستفاد العدو من اسلوبهم،أعتبر خاطئ وبالعكس يعني ان صحة الاسلوب والوسائل والافعال تقاس عموما بنتائجها. فعلى ضوء تلك النتائج تتطور الاساليب. هذه الحقيقة يجب ادراكها خصوصا من ذوى النشاطات ذات الطابع الاسلامي. ومن المفيد لها خصوصا أن تتعلم ليس من الكتب فقط بل ومن الواقع حتى من أساليب أعدائها ايضا وأن تعمل أبدا بالقول: وأعدوا لهم ماستطعتم.

١١ـ فلسفة التوراة خطأ وخطر

أن الإنسان المنطقي والمتحرر الفكر يرى في تطبيق فلسفة التوراة " الكتاب المنزل " في الحياة العامة خطأ وخطر، خطأ في تطبيقها داخل اسرائيل وخطر على الشعوب الأخرى. ومن يتتبع المنطق والواقع يرى في الوقت نفسه أيضا أن الأخذ حرفيا بالقرآن كدستور كما أخذت به الوهابية في السعودية أو في ايران الحالية ـ حكومة الأئمة ـ أو مثل ما يأخذ به اهل التوراة بكتابهم كدستور في إسرائيل أنه امر قد فات أوانه وأصبح الأخذ به حرفيا في يومنا هذا،

وخصوصا في أقطار العالم الثالث، سدا منيعا في وجه التقدم والتطور الاجتماعي العلمي لها كما يعطي أهل الهيمنة العالمية والصهيونية وسيلة اضافية تسند بها سيطرتها على الغير. علماً ان التقدم العلمي التكنيكي والسياسي الذي سبق ان فتحت ابواب اوربا على مصرعيها انما حصل فقط بعد فصل الكنيسة عن الدولة.

يبدو لي أن الوقت قد حان سيما بعد مرور نحو أربعة قرون من التجربة الأوربية أن ندرس إمكانبة مثل ذلك التحول والسعي اليه في البلاد العربية والاسلامية وما يدعى بالعالم الثالث، ذلك لأن خطر التوراة، خصوصا بعد ان اصبحت الصهيونية سلطة سياسية، آخذ بالتوسع.

يتوجب على تلك الاقطار الأخذ بالتجديد والتجدد المتطور والمتحرر واللصيق بالاسلوب الديمقراطي الاجتماعي ومعالجة الوقائع لا على اساس من الغيبيات بل وفق منطق الوقائع الراهنة

١٢ ـ ملامح اخرى متباينة بين الكتب المقدسة تستحق التأمل

من الملامح المتباينة والمتناقضة في نصوص التوراة:

ان التوراة لا تقيد أهلها فقط بالعرق بل أباحت لأتباعها أفرادا كانوا أم جماعات بأسم الرب وبأمره إستغلال الغير ـ وهو كل من ليس من ذرية يعقوب ـ بكل الطرق والاستفادة منه والتمتع في الحياة التي لا آخرة بعدها عندهم. فعمدوا الى جمع المال حتى بالكسب غير المشروع، فالتوراة تبيح لهم استخدام الحيل والخدع. واستخدموا في

العصر الحديث العلم والتكنيك لذات الأغراض وحازوا على اسلحة الهجوم فضلا عن اسلحة الدفاع وكسبوا المنافع من الغير فحصلوا على القوة والنفوذ.

في حين أن القرآن، منزل، أيضا كالتوراة من عند الله، يفرض على أهله التمسك باخلاق تتحاشا لا بل تحرم الاضرار بالغير ولا تعتبر الدنيا غاية بذاتها بل أنها متاع الآخرة فيدفع بذلك اهله الى الزهد والتقشف والخضوع الى ولي الأمر بل والى تأليهه كما يحدث في بعض الحالات والتالي فالغالبية من اهله قد أهملوا الحياة الدنيا ولم يهتموا بالعلوم الحديثة والتكنيك الحديث وهؤلاء وصفهم البعض بالرجعيين لأنهم يقاومون التجدد والتطور وعندهم الأخرة هي المنال المقصود.

ولقد ظهر بوضوح خصوصا فيي أيامنا هذه أن سلوك أمثال هؤلاء المسلمين وتصوراتهم الغيبية تقع بالنتيجة أرادوا أم عارضوا في صالح أهل الهيمنة العالمية والصهيونية إذ هما يعملان دائما على تشجيع عقيدة الزهد بالدنيا ولهذا الغرض يشجعان حسب الامكان فكرة الزهد عند المسلمين للابقاء ما أمكن على التأخر في ربوعهم وإبعادهم عن التطور والمعرفة الحديثة.

١٣ ـ وجه آخر للايحاء الضار،غفلة ودسيسة :

ان للتدخل الخارجي غير المباشر خصوصا أوجها مختلفة يتستر وراءها. يلاحظ في أيامنا هذه وفي أكثر من بلد عربي وجود إعلام نشيط ديني الصبغة (إسلامي) ظاهره كوسيلة للنهوض، ـ على غرار

ما حصل في الثمانينات في إيران ـ وقد يكون مقصودا وقد لا يكون لكنه على كل حال يذكرنا بتلك الأبواق التي دقت عاليا في نهاية الخمسينات وحثت الناس على إعتناق الحركة القومية والحرية والاشتراكية العربية، وأخيرا أظهر الواقع ان معظم تلك الأبواق كانت مصنوعة في النصف الغربي من الكرة الأرضية وكانت وظيفتها الاطاحة بحركة التحرر في العراق ومصر وسوريا. وبعد ان توصلت الى ما أرادت ، بأن أرغمت شعوب تلك البلدان على الاذعان ومن ثم تقسيمها الى فرق وأحزاب. وبعد وصولها الظافر الى السلطة، تلاشت من الوجود مزاعم الوحدة والاشتراكية وحل محلها ضمان المصالح الخاصة بالشركات الأجنبية وحراسها من العرب. ويتسائل المرء، هل جاء الدور على الجزائر الناهضة ؟

أما الإعلام الذي وجه الى المسلمين بعد تجربة الإعلام القومية فقد شُجع في أوائل السبعينات خصوصا في مصر لتحضير الجو لما سمي بعد ذلك " معاهدة كمب ديفيد " إذ كان من جملة فحوى ذلك الإعلام : ان الكتب المقدسة الثلاثة هي منزلة من إله واحد وأهلها كلهم موحدون، يعبدون ذات الإله الواحد، وعليه يجب الرجوع (للقرآن) للوصول الى المجد الغابر ولتخفيف النزاع بين الموحدين. هذه هي خلاصة لما سمعته في حينه في تعليق إذاعي مصري. ان فحوى هذا التعليق في الحقيقة من وجهة نظر القرآن صحيح إذ في الأخير مواقف جد إيجابية أزاء أهل التوراة خصوصا تجعل أهل الاسلام في حرج إذ في نصوصه ما يجعل أهل الاسلام يحسنون الظن بالتوراة بما يكفيهم عن قرائتها وبالتالي يحجب عنهم الاطلاع عليها لمعرفة حقيقتها. وكانت المناسبة لهذا التعليق من إذاعة القاهرة هي تسهيل مهمة زائر

القدس المقبل وتبريرها باسم الموحدين أهل الكتاب. وفعلا تمت الطبخة بزيارة للقدس عام ١٩٧٨.

إن النصوص المقتبسة هنا من الكتب الثلاثة تظهر بجلاء إختلاف مصالحها وعقائدها رغم وجود القاسم المشترك الأعظم بينها ـ وهو الاعتراف اللفظي بالاله الواحد فهو واحد من حيث العدد لكنه مختلف من حيث الصفات والغايات المتناقضة عند كل منهم. فكتب هذه محتوياتها لم تعد مقبولة ولا تفيد الإلتئام لا بين إنسان وآخر ولا بين الشعوب. وإن الجهة التي تستفيد من هذه التناقضات ومن غفلة المؤمنين هي القوى المهيمنة وحليفتها الصهيونية.

١٤ ـ البرمجة والقدر المحتوم :

هناك مواقع متعددة في القرآن يفهم منها انه يأخذ بالبرمجة المسبقة المقدرة من عند الله مقدما لما يجري في الحياة إضافة إلى علمه بالغيب. وهذا يعني ان كل ما في الحياة وعلى هذه الأرض مقدر ومكتوب سلفا. وهذا فضلا عن انه يخالف سنة التطور الاجتماعي الثابت وجوده للعيان، فانه لو أخذنا به فانه يزيل المسؤولية عن كل من تصدر عنه مخالفة أو معصية في حياته بين الناس والمجتمع إذا اعتبرنا ان ما فعله كان مقدر عليه مقدما. وإذا قيل لنا ان الله قد أعطى الانسان عقلا يميز فيه الخير من الشر مع ذلك قد لا يمكن مسائلته عن خطيئة اقترفها بسبب ضحالة عقله الموهوب له من خالق يعلم بالغيب مقدما بكل شئ. لهذه الأسباب يصعب الإيمان بوجود البرمجة والعلم بها مقدما لأن الأخذ بها ينفي مسؤلية الفاعل الذي نفذ في الحقيقة ما كتب عليه مسبقا من برامج.

١٥ ـ إقتباسات الكتب المقدسة من أساطير الأولين:

صار من الأمور الواضحة والمتفق عليها بين الباحثين ان التوراة أخذت محتوياتها من التصورات والأساطير السومرية والبابلية وقوانينها ومنها قصة الخليقة السومرية والحياة على الأرض وقصة الطوفان وغيرها. وقد أخذ القرآن عن التوراة وحذا حذوها في كثير من مواضيعه.

١٦ ـ ما هو المقصود من هذا البحث ؟

ان العلم بالشئ خير من الجهل. وقد قال قائل قديم " اطلب العلم من المهد الى اللحد " ولاعتقادي ان المجتمعات العربية وكذلك الاسلامية في هذا الظرف العصيب هم أحوج ما يكونون الى النهوض الفكري ومراجعة ما عندهم من تقاليد وذلك على ضؤ الواقع السائد في زماننا الحالي وليس وفق كل المقاييس الغيبية الموروثة بل والأخذ بالسبل المتطورة العملية والعلمية والتعرف على الصناعة وأساليب الزراعة الحديثة.

هذا البحث فضلا عما فيه من تحليل علاقة الكتب الثلاثة فيما بينها وإدراج تناقضاتها الصريحة في تشخيص الاله الواحد وتحديد غاياته، فانه يظهر للقارئ التأثير المتناقض لفلسفة تلك الكتب على سلوك أتباعها سلبيا كان أم إيجابيا، خصوصا الذين لا يزالون يعتقدون بان الكتب المقدسة وعقائدها الغيبية وسائل قادرة على ان تحل مشاكل المجتمعات العربية والاسلامية وانهم ـ أي المجتمعات العربية والاسلامية ـ يمكنهم التغلب على تناقضاتهم الحادة مع قوى

الهيمنة والصهيونية عن طريقها.

من المفيد لهؤلاء المتمسكين بالغيبيات وحدها ان يتعرفوا على :هل ان فلسفة التوراة (وهي شريعة إلاهية) إعتدائية تسلطية مع غير أهلها؟ أم انها فلسفة إنسانية مسيحية، إسلامية لا تقر التفوق العنصري ولا تقر بوجود شعب فوق كل الشعوب. وعلى ضوء ما يحصل عندهم من جواب سيتوصلون الى ان الأمر الحاسم لا تقرره صحة المنطق وحدها، بل لأن الطرف الأول وهم أهل التوراة قد أخذ بسبل التطور الحديثة وإكتفى أهل الطرف الثاني بما عندهم من تخلف.

من الجهة الأخرى، أردت جلب الانتباه الى أن تناقضات غالبية المجتمعات العربية والاسلامية والعالم الثالث الضعيف التطور، مع الإمبريالية والصهيونية هي في الواقع ليست قائمة مباشرة من إختلاف بين تعاليم الكتب الدينية ـ رغم وجود ذاك الاختلاف. إذ هنا قد يصح الأخذ بالقول المعروف: لكم دينكم ولي ديني. بل ان التناقضات بين أهل الهيمنة والصهيونية من جهة وبين الأقطار النامية من الجهة الأخرى إنما هي تناقضات بالدرجة الأولى سياسية إقتصادية ناتجة عن تسلطهما السياسي الاقتصادي ـ الهيمنة على أسواق النفط ومواد الخامات الأخرى فيها وتأثيرها لاقامة حكومات خاضعة لمشورتها وبسبب إستيلاء إسرائيل على الأرض الفلسطينية ومنع أهلها الفلسطينيين حتى اليوم من تأسيس دولتهم الشرعية على أرضهم. ولما كانت شكوى البلاد العربية هي بالدرجة الأولى من الهيمنة الأجنبية والاحتلال الاسرائيلي لكل فلسطين، وهي تمس وتضر بمصالحهم

الحيوية فان دفاع أي من هذه الشعوب عن نفسه ضد السيطرة الأجنبية ينصب على إكتساب التحرر السياسي والاقتصادي معا وهو دفاع مشروع ويتم عن طريق كسب العلوم الحديثة ووسائل التكنيك المتطورة وليس بالدعوة الى الفلسفة الدينية الغيبيـة أو مـا يطـرح علـى أساسها من شعارات في الشوارع والتي تـؤدي الى إثـارة الاختلافـات عمدا بين الطوائف أو بين القوميـات في البلـد الواحـد ذات المصلحـة الواحدة. ان هذه الظاهرة الخطرة، ولا يسـتبعد ان تكـون مدسوسـة، تزيـد في الطـين بلـة لأن إثـارة الخلافـات الطائفيـة والقوميـة في البلـد الواحد، ليست وسيلة صالحة لرد نفوذ أهل الهيمنة ولا لصـد عـدوان إسرائيل وإنمـا تـؤدي في الحقيقـة الى تعزيـز مـا نشـكو منـه بـدلا مـن إضعافه.

إرجو أن تجد هذه الحقائق صـدى مقبـولا خصوصـا فـي أوسـاط الشباب المتحفز ومن ينشد زيادة في الاطلاع وحسن القصد هو الشفيع لي فيما لو أخطأت.

الفصل الأول

أين تكمن جذور فلسفة أهل الهيمنة والاستيلاء والعنصرية الحديثة، وهل لها علاقة بفلسفة التوراة ونصوصها ؟

١ ـ هل يختلف الموحدون في غايات الاله الواحد وفي تشخيص صفاته؟

كثيرا ما نسمع من طرف أو آخر ترديد عبارة " الموحدون أهل الكتاب " و كأن قائل هذه للألفاظ يريد منها إظهار الصفة المشتركة والعقيدة الجامعة بين أهداف وغايات شرائح من يُدْعَون بالموحدين. لكن الموحدين في الحقيقة تتباين غايات شرائعهم وأهدافها ويختلفون جديا في تشخيص صفات ذاك الاله الواحد. فهم حين يلتقون مع بعضهم عند تسميتهم إله واحد بذاته لهم ووفق تفكيرهم فانهم يختلفون إختلافا كليا على تعيين غاياته وبالتالي فهم يختلفون على صفاته وتحديدها وهي الصفات التي بواسطتها يمكن التعرف على وجوده ناهيك عن الإيمان به.

إن التوراة ـ كتاب موسى ـ تحصر غايتها التي تقول عنها انها غايات الله الواحد بداخل حدود تعود لصالح قوم معين وهم بطبيعة الحال أقلية من البشر وتعطيهم التوراة حق التفوق على بقية مخلوقات الاله الواحد من البشر. وبالتالي فان غايات الاله الواحد كما جاءت بالتوراة، إنما هي مقصورة على أهلها ومحصورة بهم فقط. والتوراة تنكر أن يكون لهذا الاله الواحد غايات شاملة لصالح مخلوقاته من البشر بكل أقوامهم المختلفة، بل هي تحصر نطاق الاستفادة منها ضمن العرق وصلة النسب بالدم والوراثة على آل يعقوب (إسرائيل). وإتماما لحصر شريعة الاله الواحد بهم ولوحدهم فقد انعدم عندهم التبشير بوجود الله كما يفعل أهل الكتابين الآخرين، لأنهم يفترضون ان الرب رب يعقوب وما قال به إنما هو لصالح آل يعقوب وحدهم. ويجب ان تبقى مزايا الاعتراف به محتكرة فيهم بصفتهم شعب الله المختار. واليكم نموذجين مما جاء في التوراة بهذا الصدد:

أ ـ ما جاء في كتاب التوراة، جزء التثنية اصحاح ١١:٢٣

" يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوبا أكبر وأعظم منكم كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات الى البحر الغربي يكون تخمكم لا يقف إنسان في وجهكم. الرب إلهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التي تدوسونها كما كلكم ".

انه لواضح وصريح على حد هذه الآية في التوراة بأن لأهلها الحق بإذن الله الإحتلال والسيطرة على الشعوب الأخرى لاستغلالها إقتصاديا، إذ لا يمكن ان تكون هذه السيطرة لنشر المعرفة والإيمان بإله

التوراة وتعاليمه كما في المسيحية والاسلام (التبشير)لأن شريعة التوراة شريعة عرقية مغلقة وخاصة بآل يعقوب وحدهم وليست لكل الشعوب كما هو الحال في المسيحية والاسلام. وبذا يتجلى بوضوح ان سيطرة أهل التوراة على الأغيار وأرضهم انما من أجل الكسب غير المشروع ولو بالقوة.

ب ـ وأما ما جاء في التثنية / اصحاح ١١:١ وما بعده فانه يبين صراحة ان التوراة تعتبر تخريب ممتلكات الغير والاستيلاء على أرضه هو أحد الفرائض الدينية فتقول:

" هذه هي الفرائض والأحكام التي تحفظونها لتعملوها في الأرض التي أعطاك الرب إله آبائك لتمتلكها كل الأيام التي تحيون على الأرض. تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التي ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلول وتحت كل شجرة خضراء وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتحرقون سواريهم بالنار وتقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون إسمهم من ذلك المكان"

انني أقرأ هذه العبارات من كتاب مقدس لنبي اسمه موسى فتتضاءل أمام مخيلتي معظم الإعتداءات وما نسبه التأريخ منها الى نيرون الطاغية أو هولاكو والتتر وغيرهم من جرائم وفضائع وقسوة وفي مناطق معينة ضد الانسانية بما فيها ما تشكى منه ـ خصوصا بعض أهل التوراة أنفسهم من أحداث مؤلمة وقعت في الثلاثينات في جزء من أوربا.

فمن الصعوبة على المرء أن يتقبل نسبة ما يقولون أو يفعلون الى إرادة الإله الواحد الذي آمن به ودعا اليه عيسى ومحمد.

٢ ـ غايات الإنجيل ثم القرآن

ان الإنجيل لم يلغ بشكل عام كل ماجاء في التوراة ــ كتاب موسى ـ من تقنين، لكنه قد ألغى بصريح العبارة أهم ركنين قامت عليهما الشريعة اليهودية وهما:

الركن الأول : هواعتبار آل اسرائيل هم شعب ا لله المختاروهو قولها في التثنية/اصحاح٧:١٤

"مباركا تكون فوق جميع الشعوب لا يكون عقيم ولا عاقر فيك وفي بهائمك".

الركن الثاني: الذي الغاه المسيح باسم الأله ايضا من الشريعة اليهودية هو أدعاؤها بحصر شريعة الأله تلك لبني اسرائيل ــ يعقوب وذويه ـ دون غيرهم من البشر وان الشريعة بكل احكامها مقصورة عليهم بالوراثة وهي علاقة الدم فقط دون بقية البشر اوبمعنى آخراحتكار معرفة الأله لهم

انظر التثنية اصحاح ١٣:٧ أذ تقول:

"لاتشفق عليهم لاتصاهرهم بنتك لاتعطي لأبنه وبنته لاتأخذ لأبنك"

وفي يشوع/اصحاح ٤:٢٣،٦،٧ أذ تقول:

"فتشددوا جدا...حتى لا تدخلوا الى هؤلاء الشعوب...لكن اذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب الباقين معكم وصاهرتموهم ودخلتم اليهم وهم اليكم فاعلموا يقينا ان الرب لا يعود يطرد أؤلئك الشعوب من امامكم".

ان الركنين الأساسيين ـ اعتبار آل اسرائيل هم شعب ا لله المختار والمفضل على بقية الشعوب، وحصر شريعة التوراة بشعب ا لله المختار هذا ودون التبشير بها في خارج نطاق مجتمع آل اسرائيل هما من اهم كتب وغايات ـ كتاب ا لله المقدس ـ التوراة.

لكن المسيح قد الغى كما ذكرت هذين الركنين و لم يرض بأن تبقى شريعة التوراة مقصورة "بأسم الرب" على آل يعقوب ولمنافعهم القومية العنصرية، فقال الآتي:

في أنجيل متى اصحاح ١٨:٢٨،١٩،٢٠.

"دفع الي كل سلطان في السماء وعلى الأرض فأذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الرب والأبن والروح القدس وعلموهم ان يحفظوا جميع ما أوصيكم به وهنا انا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر".

ان المسيح بقوله هذا يكون بالطبع قد الغى احتكارآل اسرائيل لمعرفة الأله وحصر شريعته بهم ودون غيرهم من البشر فأراد مساواة الناس فيما بينهم في المنزلة وألغى وجود شعب مختار وبذلك استحق منهم الشد الى خشبة الصليب.

واما القرآن فأنه لم يخالف الأنجيل في غاياته لمصلحة البشرية عموما بل سار على منواله فهو لم يقصردعوته على شعب بذاته او قومية خاصة كما فعلت التوراة، بل قد خاطب كل البشرية وكرمها.

فقد جاء في سورة الأسراء الأية ٧٠ مايلي" لقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ".

وقال ان الغاية من خلق البشر هي عبادة ا لله: "وما خلقت الجن

والانسان إلا ليعبدون ". في حين ان التوراة تقول لتسبيب الخليقة ـ خلق الانسان ـ هو لتسليط البشر على سمك البحر وعلى طير السماء والبهائم ـ تكوين اصحاح ١:٢٦

٣ ـ أهل الكتب الثلاثة يختلفون حول اليوم الآخر

الأمر الآخر الذي يختلف عليه " الموحدون ـ أهل الكتاب "، هو اليوم الآخر ومسألة الثواب والعقاب.

تخلو التوراة من ذكر اليوم الآخر وتعتقد بأن البشر والبهائم موتها سواء، فكلها تذهب الى الهاوية الى الظلام كما قال قبلهم السومريون. نحن نقرأ في التوراة:

" لأن ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل فليس للانسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل. يذهب كلاهما الى مكان واحد. كان كلاهما من تراب والى التراب يعود كلاهما. مَن يعلمْ روح بني البشر هل هي تصعد الى فوق وروح البهيمة هل هي تنزل الى أسفل الأرض. فرأيت أنه لا شيىء خير من أن يفرح الانسان بأعماله لأن ذلك نصيبه لأنه من يأتي به ليرى ما سيكون بعده " جامعة اصحاح ٣: ١٩، ٢٠(النبي سليمان)

٤ ـ الإنجيل واليوم الآخر

أما الإنجيل فانه يؤمن باليوم الآخر (القيامة). إليكم ما ذكره إنجيل متىّ بهذا الخصوص " في ذلك اليوم جاء الصدوقيون الذين يقولون ليس قيامة فسألوه "(وهو يقصد سألوا المسيح عن الزواج

والصدوقيون هم أحبار اليهود ولا يؤمنون بالقيامة) فأجابهم:

" فأجاب يسوع وقال لهم تظلون لا تعرفون الكتب ولا قوة الله. لأنهم يوم القيامة لا يُزَوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء " . إنجيل متى اصحاح ٢٢: ٣٠

ولكن هل هي قيامة عامة لكل البشر مثل التي يعتقد بها الاسلام؟ لأنه عند متابعة جواب المسيح على تتمة السؤال ،قال : "وأما من جهة قيام الأموات إنما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل. أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب وليس الله إله أموات بل إله أحياء " متى اصحاح ٢٢: ٣٢/٣١

فيفهم من كلام المسيح ان الذين سيحضرون يوم القيامة، هم اولئك الذين رغم موتهم ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فهل يفهم من هذا ان أهل القيامة هم الذين أرواحهم في السماء فهم أحياء وان غيرهم مَنْ مات من البشر و لم تصعد روحه للسماء فلا قيامة له، لأن روحه لم تعد حية. وهذا إختلاف آخر بين المؤمنين بالقيامة.

٥ ـ القرآن والقيامة

أما إيمان القرآن بالقيامة واليوم الآخر فيعتبر عند أهله شرط من شروط الإيمان بالله. واليكم ما جاء في القرآن بهذا الخصوص:

" ان الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ". سورة الاسراء/ آية ١٠. وقال: " وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث مَنْ في القبور ".سورة الحج/آية٧.

فأهل الكتب الثلاثة المنزلة من إله واحد، أي أنها من منبع واحد

يختلفون في أمر اليوم الآخر.

التوراة لا تؤمن باليوم الآخر - لا حياة أخرى لا للانسان ولا للبهيمة.

الإنجيل - القيامة في اليوم الآخر ليست للعامة وإنما للخاصة

القرآن - القيامة لجميع البشر وفيها ثواب وعقاب فمنهم أهل النار ومنهم أهل الجنة.

٦ - إختلافهم على صفات " الإله الواحد "

ان الكتب الثلاثة لا تعدد في بحث مستقل لها، صفات ا لله وإنما يستطيع القارئ ان يستخلصها من مجمل محتويات تلك الكتب.

انك عندما تقرأ كتب موسى - التوراة - فانك لا تجد حقلا أو سورة خاصة لصفات ا لله ولكنك تستخلصها مما تقرأه فيها. فتصل من قصة الخليقة وما بعدها الى:

أولا - ان ا لله قادر على كل شئ؛ وتصل:

ثانيا - الى انه إله واحد أحد؛ وتصل :

ثالثا - الى انه أزلي ودائم.

وعند متابعتك تسلسل الأجيال البشرية التي ذكرتها التوراة، فانها ستصل بك الى إبراهيم ثم إبنه إسحق ثم إبنه الأخير يعقوب. هؤلاء أعطاهم ا لله الأفضلية التي إستقرت في يعقوب، فتتوصل مما قرأت ان الغرض من الخليقة في النهاية يتركز في يعقوب وذريته بالنسل والدم، مقابل عبادتهم للرب. فتستدل منها على تحيز الرب لقسم من مخلوقاته دون غيرها. وهناك أيضا في التوراة حدود وأحكام للعلاقات والتعامل

في مجتمع آل يعقوب وغيره من المجتمعات غايتها أن تفتح له طريقا يسعده ويرفه حياته في هذا العالم دون بقية الشعوب.

الى هنا نكون قد وجدنا في التوراة ثلاث من صفات ا لله: القدرة، الوحدانية، والأزلية. وكما انك لا تجد في التوراة بابا خاصا بصفات ا لله فانك غير واجدها في الإنجيل والقرآن أيضا.ولكن من قراءتنا للأنجيل(متى) والأطلاع على آياته نستطيع الإستدلال على وجود صفات لله.

فالأنجيل اعترف بشريعة موسى واخذ بها لكنه فتحها لكل البشرية بعد ان كانت قاصرة على بني اسرائيل، فيكون بذلك قد اتم شريعة التوراةعلى حد ماقصده.

معنى ذلك ان الأنجيل قد عمم بركة ا لله على الناس جميعا بعد ان كانت محصورة بفئة دون غيرها. وبهذا قد أضاف الأنجيل ونسب لله صفة العدالة. وصحح صفة اللاعدالة والتحيز في التوراة. والأنجيل اعتبر البشر سواسية امام الرب وبذلك ـ كما قلت ـ أضاف إليه صفة العدالة وهي صفة مهمة. فصارت لحد الآن صفات ا لله اربعة.

ولقد شارك القرآن والتوراة اولا في اوصاف ا لله الثلاث الأولى: القدرة، الوحدانية، والأزلية.كما شارك مع الأنجيل في نسبة الصفة الرابعة له وهي العدالة. ثم اضاف القرآن عليها صفة العلم بالغيب.

فالى هنا نكون قد عرفنا من صفات ا لله خمسة صفات.

لكن القرآن باضافته لله صفة العلم بالغيب يكون قد رسم مقدما حركات الأنسان او تطوره في لوح مكتوب مقدما،اي مبرمج سلفا ومقدر ايضا لكن الأخذ به فيه اعتراف بالجبرية ونفي للأختياروفقهاء

الأسلام يضعون لله ثمانية صفات الزامية له ويقولون ان كل ماينسب اليه، يجب ان لا يخالف مضمونها. وان أي عمل يخالفها لا يمكن نسبته الى ا لله. يعني على سبيل المثال اذا رأيت ظلما وقع علي شعب او فرد فلا يمكن نسبة ذلك الى ا لله لأن من صفات ا لله العدل والعدل ضد الظلم ومن صفات ا لله الثمانية: القدرة، الأزلية، الوحدانية، العدالة، والعلم بالغيب ووجوده في كل مكان

٧ـ وتباينهم فيما ينسبون للأله من صفات

فلو اردنا مطابقة ما جاء في الكتب الثلاثة وما احل لأهلها مع علمنا المسبق ان مصدر الثلاثة هو ذات ا لله الواحد، فاننا نجد برغم وحدة مصدرها، تباينا كثيرا في غاياتها وتفاوتا فيما ننسبه لمصدرها الواحد وهو ا لله، من صفات. وبالتالي فاننا نجد أنفسنا أمام معضلتين، طالما نحن لا نتبع طريق التحليل المنطقي لما يجري في الحياة.

الأولى: هي ان الكتاب الأول لا يلصق صفة العدالة بالإله الواحد بتخصيصه الكتاب لفئة معينة فهو يقول انه كتاب من ا لله لشعب قد فضله على غيره من الشعوب. وهذا التخصيص فيه فقدان للعدالة فكيف الحل؟

هل ننفي كون الكتاب منزل من ا لله، لأن ا لله لا يصدر منه ما يجافي العدل، أم ننفي ذلك الإله لكونه غير عادل بكتابه؟

الثانية: المعضلة الثانية وتنشأ خصوصا من الكتاب الثالث، (القرآن) إذ يجعل من صفة " العلم بالغيب " شرطا إلزاميا لوجود ا لله. ومعنى العلم بالغيب، هو العلم مسبقا بما يجري على الانسان في

حياته وعن كل شئ سيحدث سواء أكانت تلك الحوادث ستقع بفعل الانسان ذاته أو بفعل الطبيعة: " عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر ولا أكبر إلا في كتاب مبين". سورة سبأ/آية ٣.

إن مجرد القول " بالعلم بالغيب " يعني في التطبيق البرمجة المسبقة لما سيحدث في المستقبل. فبدون وجود برمجة وتخطيط لهذا المستقبل لا يبقي "للعلم بالغيب" لزوم. فالعلم بالغيب معناه العلم ببرنامج مخطط سلفا لكل الوقائع.

٨ ـ تطور لا قدر مكتوب

هناك من يدافع عن صفة العلم بالغيب التي تعني وجود البرمجة المسبقة، لكنه يلقي مسؤولية الفعل على فاعله الانسان دون أن ينتبه انه في دفاعه هذا إعتراف بسنة التطور الإنساني ونفي لوجود البرمجة والعلم بالغيب. فحينما يناقش أحدهم ويقول: كان على الفاعل المباشر ـ الانسان ـ أن يتدبر الأمر ويراجع عقله لأن الله قد خلق له عقلا، فيبتعد عن الأعمال السلبية ويقتصر نشاطه على الإيجابيات منها. هذا الجواب قول جد صحيح، لأنه من جهة ينفي وجود البرمجة لحياة الانسان والتي إستخلصناها من "ان الخير والشر من عند الله"، ومن جهة أخرى إعتراف بسنة التطور. إن إفتراض البرمجة في حياة الانسان والقول بأن كل شئ مُقدر جاء نتيجة لإفتراض "العلم بالغيب". واننا إذا نفينا القول بالعلم بالغيب، فاننا ننفي بطبيعة الحال وجود البرمجة أيضا، ونعود الى الوضع الطبيعي وهو التطور وتحكيم العقل الانساني، زنتائجه متعلقة بنسبة التطور البشري وزمانه. انك لا تستطيع

الجمع بين النقيضين: من جهة تقول بالرجوع الى العقل وتحكيمه وتتكلم من الجهة الأخرى عن قدر محتوم ومنهج مقرر عليك وضعه العالم بالغيب مقدما. أعود فأقول ان الجواب بانه: كان على الفاعل أن يتدبر الأمر ويراجع عقله، هو جواب صحيح - وإن إختلف قصد المجيب -. فالانسان يصبح منذ بلوغه مسؤول عن عمله وان عقله ميزانه. **وعقله هذا يتفاعل مع الحوادث فيكتسب منها ويتطور ويعود فيؤثر فيها ويطورها.** ويستعين بما يبدعه من وسائل إنتاج فيستفيد من وفرته وتحسينه لسد حاجاته وتقليل العمل البشري الشاق بالتعاون مع جنسه. وهكذا سارت البشرية منذ نشأتها وتوسعت بالتدريج قدرة عقولها ونمت وتطورت حتى أبدعت العلوم المختلفة. بينما ظلت شعوب تعيش حياة القرون المظلمة. ومن المعروف ان كل هذه العلوم قد جاء بها عقل الانسان وعمله بالتدريج وبدفع ذاتي وتعاوني مشترك لتحسين حياته الاجتماعية والإقتصادية، وبفعل التطور الطبيعي. فهذه العلوم ليست مأخوذة ولا مكتوبة في أي كتاب منزّل، وإلا لكان أهل الكتاب قد إستخدموها في وقته وإستفادوا منها حين نزول الكتب عليهم، وإنما تعلمها الانسان وطورها بنفسه وبتجاربه في حياته وتحت شروط معيشته على الأرض التي عاش عليها. وهكذا سيكون في المستقبل.

٩ - مناقشة: مياه العين الواحدة لها طعم واحد

بعضهم يردد عبارة " الاله الواحد " وهو يريد التدليل بها على تجانس أهل الكتب الثلاثة وجمعهم ضمن عقيدة التوحيد. عليه لو سلمنا جدلا بوحدة مصدرها لأمكننا أن نفترض أنها أشبه بالمياه النابعة مباشرة من عين واحدة، وبالتالي وان استنتجنا من هذا التشبيه،

فان المنطق يقضي بداهة: أن لا يكون للمياه النابعة مباشرة من عين واحدة إلا تركيب واحد وطعم واحد. فهل هي كذلك؟ لا شك ان الجواب، بعد الذي سمعناه عنها، سيكون سلبيا.

قلت ان المصدر الواحد هو بمثابة العين الواحدة التي ينبع منها الماء. ويجب الآن تشخيص هذا المصدر. ونظرا لأنه غيبي الوجود، يعني لا يمكن التأكد منه بشكل مادي عن طريق الحواس الخمسة، فمعرفته إذن تقاس ـ خصوصا عند أهل الاسلام ـ على ضوء إنطباق ما ألصقت به من صفات ذاتية لازمة له. والفقهاء يعتبرون فقدان أية صفة منها موجب للجحود والنكران. والصفات الإلهية هي كالآتي: الوحدانية، الأزلية، القدرة، العدالة، العلم بالغيب والوجود في كل مكان. عليه تقوم أمامنا قاعدة تشريعية تقول : كل ما ينسب الى "المصدر الواحد " (الرب) من أقوال أو تصرفات أو كتب منزلة يجب أن تكون محتوياتها مطابقة وموافقة لتلك الصفات اللازمة. فإن كان ما نسب اليه منطبقا عليها ومنسجما معها صحت نسبتها اليه، وان لم تكن مطابقة فلا تنسب اليه. فا لله العادل إذن لا يمكن نسبة الظلم أو إفناء البشر أو الحيوان أو الإرهاب اليه، وللقادر القدير لا يمكن نسبة العجز وللعالم بالغيب لا يمكن نسبة الجهل بالمستقبل، أو إنتظار معرفة النتائج، لأنها يفترض أن تكون معروفة لديه مقدما.

وأخيرا فان تعاليم الكتب الثلاثة المنسوبة للمصدر الواحد (الرب) كموحى بها أو مُنزّل لها، يجب ان لا تخالف صفاته اللازمة. لكن الكتب مليئة بالتناقضات. وهذه نظرة مقارنة على نصوص من الكتب الثلاثة، وللقارئ ان يستنتج لنفسه ما يراه موافقا أو مخالفا للصفات، إضافة لما

تبينه من الصفحات السابقة من تفاوت أو إختلاف في عقائدها.⊗

١١ ـ الغرض الطبيعي من تكوين الشرائع ووجودها

من المفروض مبدئيا ان ما جاء في الكتب الثلاثة على العموم إنما قصِدَ به تعيين طريق السلوك الاجتماعي للناس وتحديد العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بينهم في السلم والحرب ـ على عهد معين من درجات التطور البشري. لكن من يقرأ التوراة يجد أنها جاءت بنماذج من السلوك الطبقي العنصري التفوقي، فأباحت باسم الله ومشيئته لآل يعقوب (إسرائيل) دون غيرهم، باعتبارهم شعب الله المختار، كل الأرض وما عليها لخدمتهم، ولم تأت لغرض غيره. وأباحت إستغلالهم للغير والسيطرة عليه. إنظر على سبيل المثال تثنية اصح ١١:٢٣

⊗ في خدمة من يقع ترديد عبارة " أهل الكتاب "؟ ولعل من أهم نقاط الإلتقاء بينهم هو ترديد جملة " الاله الواحد " بالاسم دون الصفات. وأما عن ترديد بعضهم لجملة " أهل الكتاب " فهو غير واقعي وقبوله غير مطلق من الجهات الثلاث، بل وربما يخدم أهل الكتاب الأول ويحفزهم ويعود بالضرر على قائليه أو يبعدهم عن إستيعاب حقائق حياتية سياسية أدى الجهل بها ولا يزال يؤدي الى ضياع حقوقهم السياسية والاقتصادية. ويمكننا القول بعد ان علمنا ان لهذه الكتب أغراضا ليست متفقة مع بعضها بل هي متنافرة ان ترديد عبارة " أهل الكتاب " مقصور على قائليها، لأن أهل الكتاب الأول لا يعترفون لغيرهم بهذه الصفة، في حين ان الاسلام إعترف من جانبه بما قبله ولوان إعتراف الاسلام بالتوراة لم يخفف من التناقض بينهما رغم كل ما نسبه القرآن من الإيجابيات الى التوراة، حتى ان كثيرا منها لم تقله هي ولم تعترف به أصلا. فالنظرة الإيجابية من القرآن الذي لم يترك لا شاردة ولا واردة إلا وأخذها من التوراة ثم وضعها بشكل إيجابي المقاصد خلافا لأصلها وأوجد لها غايات تتفق مع مثله الروحية، لم تخفف من التناقض بينهما مطلقا.

واصح ١٢:١/ وغيرهما. وهو ما أخذته عنهم الإمبريالية منذ نشأتها وما زالت تطبقه وتنفذه كسياسة لها في كل مكان ضد شعوب الارض الضعيفة.

١٢ ـ اللجوء الى التفسيرات الغيبية والاستعانة بها للتسلط على الغير

في المجتمعات القديمة حيث لم تكن بعد وسائل الإنتاج وعلاقاته متطورة ولا الأفكار متبلورة وإذ كانت قدرة الإدراك عند العامة غير مرتفعة، والعلوم المعروفة في يومنا وعصرنا الحديث لم تكن بعد معروفة، كان من الطبيعي لقادة تلك المجتمعات ان يلجؤوا الى التفسيرات الغيبية والى إتخاذ الأساطير والتنبؤات وتفاسير الأحلام، ثم تقنين أحكام العلاقات الانتاجية بموجبها ووفقا للتسلط البدائي العشائري أو الطبقي وجعلها ملائمة لرغبات الملوك والكهنة. فشرائع تلك العصور قد عكست صورة حياتها وفقا لوجهة نظر القيادة السياسية في كل مجتمع منها. ان تلك الطبقات السائدة حينذاك، وخصوصا أصحاب التوراة، قد وضعت أحكاما ورسمت سلوكا خاصا لتحقيق أغراضها بما يناسب تطورها وحاجاتها للتغلب على غيرها من الأقوام، وبررته تحت ستار مشيئة الرب أو الالهة الخ. وتبعا لذلك فقد بُررت الحروب وأعمال النهب والاستعباد، وشاعت المشاحنات والانقسامات الاجتماعية بحسب الاختلافات العرقية والدينية والسياسية والمذهبية التي ورثها العالم اليوم ويعرفها الجميع، والتي أخذت شكلها في العصر الحديث في عقيدة الصهيونية والاستعمار والامبريالية.

. مع ذلك اذا علمنا ان تبريرات وتفسيرات الشرائع الغيبية القديمة جميعها حتى الأجزاء الايجابية منها لم تنجح في كل أدوارها نظرا لأرتكازها على الغيبيات العنصرية والاستغلال، في إحلال السلام والوئام، لا بين الأمم ولا بين الطبقات. فكيف يراد لتلك الشرائع والأحكام الغيبية النجاح اليوم في مجتمعات عصرنا العلمي المادي، عصر التحليل الاقتصادي والتفسير المادي للتأريخ، عضر التقدم الصناعي الهائل في كل فروع المعرفة ، عصر تبلور فيه التناقض وإشتد الاحتدام الواعي والصراع المكشوف بين الإمبريالية التي تستعين بفلسفة التوراة وبين من يدعو لتآخي الشعوب وحفظ السلام بينها. وطبيعي ان الغرض مما أكتب ليس تمييز كتاب أو شعب على آخر بل لاظهار وجهة نظر كل منها، ولو أنها كلها من حيث العموم لا تعالج إزالة إستغلال الانسان للانسان ولا تحقق العدالة ولا تحترم إستقلال الشعوب الضعيفة بل تسد طريق التقدم.العلمي والصناعي.

١٣ ـ تعيين طرق السلوك الاجتماعي حاجة أبدية متطورة

ان تعيين السلوك الاجتماعي للانسان كما كان حاجة إجتماعية أبدية متطورة وليست ثابتة البرمجة. فمن يحاول الإبقاء على سلوك معين وتبرير الإبقاء عليه بالأساليب الغيبية أو وفق مساطر ثابتة لأغراض خاصة أو معينة، سواء أكان هذا المحاول، من أهل هذا الكتاب أو ذاك الكتاب أو يستوحي منه، لا شك فانه سيفشل.

وان محاولة من يريد إبقاء البشرية على ما كانت عليه قبل آلاف السنين، فانه كمن يحاول لبس ثوب طفولته وهو في طور الشباب.

أما أن يبرر محاولته هـذه بانـه يحتـاج الى ثـوب يلبسـه، لكـون حاجـة الانسان للثياب تبقـى أبديـة، فـان أسـلوب سـد تلـك الحاجـة متغـير ومتطور دائما.

لذلك علينا اليوم أن نقلـع أولا عمـا يجرنـا للـوراء ونتفهـم روح العصر المتجدد ونتوقف عن تعاطي السموم الفكرية التي تحبذ التسلط، من حيث لا نشعر، في أية عقيدة دينية أو غير دينية، حتى لو قيل أنها تنسب الى المصدر الواحد.

إذن علينـا أن نفسـر ونحلـل ونجـد حـلا للتنـاقض الحـالي الـذي أوجدته تلك الكتب في المجتمعات في الوطن الواحد أو التناقض الـذي تولد بحكم التطور بين الطبقات. علينا ان نحلـل لنعـرف كيـف تطـور التناقض في العصر الراهن مثلا بـين الصهيونيـة والإمبرياليـة مـن جهـة وبين الشعوب المسـتضعفة مـن شـعوب العـالم الثـالث، وأن نـأخذ في تحليلنا بمقاييس العصر المادي العلمي وليس وفقا لمقاييس العصر الغـابر الغيبية الميتافيزيقية التي يجـب تركهـا وهجرهـا لفـوات أوانهـا مـن أي كتاب نُقلتْ والى أية حجة غيبية غير مرئية ولا منطقية إستندت. على أن لا نكون في تحليلنا مندفعين لتشديد الخلافات بـل يجـب ان ننطلـق بدافع فتح طريق التفاهم وتعزيزه بـين الشـعوب علـى إختلافهـا. وأن نستنكر الاحتراب بينها لأنه لا يقع إلا لصالح أقلية منها.

وفي سلوكنا هذا، لو أخذ بعضنا (من اهل الكتـب) علـى سـبيل الغرض، في تحليلاته وجوب مراعـاة صفـات ا لله ومنهـا صفـة العـدل ومجافـاة الظلـم الخ، الـذي مـن اشـكاله اسـتغلال الأنسـان للأنسـان، يتوصل من حيث النتيجة الى نفس الحكـم، اي الى تشـخيص الطريـق

الصحيح ولنبذ استغلال او استعباد انسان لأنسان بحجة تفاوت العرق او النسب او اللون والموطن هذا اذا كان من معارضي الأستعمار والأستغلال.

١٤ ـ من تخدم عقيدة التفوق

هناك من يضع يده فعلا وعملا في يد من تؤمن مبادئه وعقائده الغيبية مزاولة التفوق على بقية البشر مبرراً ذلك، بأعتباره شعبا مختارا اومتمدنا، وبسند من شريعته التي تقول:ان كل من سواه من البشر والبهائم ماهي الا اشياء اعدها الله لسعادته ورفاهه.

ان في العالم الغربي من رأى ويرى في عقيدة التفوق هذه مايخدم طموحه و مطامعه الأمبريالية ويسهل له سيطرته الأقتصادية والعسكرية على مناطق واسعة من العالم. فرغم ان الغرب يدعي الأيمان بالمسيح الذي حرم الأعتداء على الغير وامر بالتسامح فأنه يطبق في الحقيقة قول التوراة لأهلها. انظر الجامعة اصح ٩ : ١٠ "كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأن ليس من عمل ولا اختراع ولا حكمة في الهاوية (المقبرة) التي انت ذاهب اليها". هكذا تطلق التوراة أيادي أهلها ليفترسوا الغير قبل ان ينزلوا الى قبورهم حيث العدم (علما ان صاحب سفر الجامعة هو النبي سليمان).

الفصل الثاني

١٥ ـ التوراة أمّ الكتب الغيبية

ان التوراة هي أم الكتب الغيبية ــ كتب الموحدين ــ وصاحب التوراة يطرحها ليس نقلا أو رواية من أحد، كما يقول، بل كتجربة حياتية ذاتية مباشرة له. وقد شهد له القرآن رغم تأخر عصره عن موسى والتوراة إذ قال " وكلم الله موسى تكليما ". وهذا يعني ان موسى ـ كما إدعى ـ قد تلقى شريعته مباشرة من الاله في سيناء. وتبدأ ببيان قصة الخليقة كما تلقاها من المصدر الواحد. وفي زمان موسى وُضِعَتْ التوراة (كتب موسى) كما تلقاها مكتوبة على الحجر في صندوق أطلقوا عليه إسم " تابوت العهد " وأحكموا سده، وهو العهد الذي قطعه الرب على نفسه أزاء موسى وآل يعقوب ـ إسرائيل ـ بخصوص الأرض والشعب المختار كما يقولون.

١٦ ـ تأمل وإستنتاج

ان كل من قرأ قصة الخليقة أو تكلم عنها سواء في أو بعد حياة موسى و لم يسبق له أن قرأ أو سمع عنها قبلا (عن الخليقة) من غير موسى، فانه سيعتقد ان موسى هو أول من أعلن عن الخليقة وكيفيتها. ولكن ماذا يقول لو علم ان السومريين ـ سكنة العراق القديم ـ كانوا قبل ألفي سنة من زمن موسى نفسه، قد دونوا بعد الاستقراء والاستنتاج تصوراتهم عن الخليقة في ألواح حجرية[٢].

١٧ ـ قصة الخليقة السومرية تقول :

" في البدء كان البحر (الماء) ويتصف بالسرمدية الأزلية. ان البحر الأول هو السبب في وجود السماء والأرض متحدتين وان الأرض والسماء عنصرين صلبين وان العنصر الغازي الموجود بينهما هو الهواء قد تمدد وفصل الأرض عن السماء "[٣].

"وبعد إنفصال السماء عن الأرض تحقق وجود النبات والحيوان"[٤].

([٢]) الأساطير السومرية ـ دراسة في المنجزات الروحية والأدبية في الألف الثالث ق.م. لعالم الآثار كريمر الأستاذ في جامعة فلادلفيا. ترجمة يوسف داود عبد القادر. مطبعة المعارف بغداد، ١٩٧١، صفحة ٨٩. ولقد ساهم كريمر في حفريات التنقيب في العراق عام ١٩٣٠.

([٣]) المصدر السابق صفحة ١١٩

([٤]) نفس المصدر صفحة ١١٩

ويعتقد السومريون بان المادة هي الأصل وهي البحر ولا يؤمنون بالبعث. وكذلك البابليون يقولون ان المادة هي الأسبق[٥].

١٨ ـ قصة خلق الانسان السومرية

أما قصة خلق الانسان السومرية فتقول ان الانسان خلق من الطين لكي يسود عالم الحيوانات:

" إنهض يا بني من فراشك... واعمل ما هو حكيم"

" اخلق خدما للآلهة لعلهم ينتجون "

...

" ان المخلوق الذي لفظت إسمه قد جاء للوجود "

...

" إمزجي لب الطين الموجود في أعلى المياه التي لا يسبر غورها"[٦].

وقد وجدت قصة خلق الانسان هذه مدونة على لوحين سومريين أحدهما عثر عليه في نفر بالعراق ومحفوظ الآن في متحف فلادلفيا، واللوح الآخر في متحف اللوفر بباريس[(٧)].

عليه يمكن من هذا أن يستدل المرء على ان قصة الخليقة لموسى التي جاءت في التوراة والتي قال عنها بانه تلقاها من الرب، إنما هي

٥

(٦) الأساطير البابلية. مصدر سابق، صفحة ١١٥

(٧) نفس المصدر، ص ١١٣.

مقتبسة، بعد نحو ألفي سنة من الأدب السومري، وليست كما قال مأخوذة مباشرة من " المصدر الواحد ". وإليكم خلاصة لقصة الخليقة في التوراة للمقارنة.

١٩ ـ قصة الخليقة في التوراة :

" في البدء خلق ا لله السموات والارض... وروح ا لله يرف على وجه المياه "

" وقال ا لله ليكن جَلَد في وسط المياه... وفصل المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد.. ودعا ا لله الجلد سماءا. وقال لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة ودعا ا لله اليابسة أرضا... الخ ". التوراة. تكوين،اصحاح ١ وما بعده.

فالتشابه هنا بين ما قاله السومريون وبين ما قالته التوراة واضح. وبما ان ما جاء في الألواح السومرية عن الخليقة سابق على التوراة بألفي سنة تقريبا، فلا يمكن أن نتصور، أخذ الأولى عن الثانية وإنما العكس هو الصحيح.

والتوراة لم تكتف باقتباس فكرة الخليقة وحدها من الأدب السومري والبابلي وغيرهما بل هي قد إقتبست أيضا كثيرا مما جاء فيها سواء من قصص أو أحكام تشريعية خصوصا من المواضيع التالية : قصة الخليقة، قصة آدم وحواء، قصة قابين وهابيل، فكرة التوحيد، وقصة الطوفان، وكثيرا من أحكام شريعة حمورابي وأسمته الوصايا العشرة. وكثير غيرها.

٢٠ ـ قصة الخليقة في القرآن :

أما القرآن فقد أخذ من التوراة أغلب رواياته. فالقرآن يؤيد فكرة ان الأصل هي المياه وان البشر خلق من الطين. وهو قوله:

" وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ". سورة هود، الآية ٧.

"ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حَمَأٍ مسنون ". سورة الحجر، آية ٢٦.

وهذا يتفق أيضا في وصفه السماء والأرض مع ما جاء في قصة الخليقة السومرية ثم التوراتية التي مرت بنا آنفا والتي تقول: " ان الأرض والسماء عنصرين صلبين وان العنصر الغازي الموجود بينهما تمدد وفصل الارض عن السماء ".

نقرأ في سورة الأنبياء الآية ٣٠ ما يلي :

" أو لم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون ". ثم قال : "وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن اياتها معرضون ". بطبيعة الحال ستجول في ذهن كل قارئ مقارنة بين كل ما قيل وبين ما توصلت اليه الاكتشافات الحديثة من حقائق في عصرنا الراهن.

وعن تقدير اللغة السومرية وآدابها أنقل أدناه كلمة قالها ألبرايت تعليقا على كتاب الأساطير السومرية :

" كانت اللغة السومرية في زمن ما لغة مقدسة، لغة المعرفة والثقافة في جميع أرجاء جنوب غرب آسيا. و لم يقتصر تدريسها على

بلاد ما بين النهرين فحسب بل كانت تدرس في الأقطار المجاورة أيضا مثل إيران وسوريا وآسيا الصغرى وحتى في مصر. وليس هناك مؤسسة ثقافية أو تأريخية تستطيع أن تنكر أو تتجاهل أهمية الأدب السومري وقيمته في الدراسات المقارنة".

٢١ ـ قدرة أم عجز ؟

قالت التوراة : " وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا ". تكوين اصح ٢: ١

قلت ان في هذه النصوص التي مرت بنا، يتأكد التشابه والناتج طبعا عن الاقتباس، بين قصتي الخليقة التوراتية وسابقتها السومرية، وان البحر هو الأصل، وان الجلد وسط المياه فصل السماء عن الأرض الخ. وأتحول الأن من موضوع التشابه بين قصة الخليقة في التوراة وسلفها السومرية الى موضوع تختلف فيه التوراة عن القرآن وهو يخص صفة من صفات المصدر الواحد (الرب)، وأقصد بهذه الصفة صفة القدرة المطلقة لذات المصدر الواحد. فهل تتوفر هذه الصفة في نص جملة الخليقة التوراتية المارة الذكر أعلاه. اننا اذا تصورنا من له القدرة على خلق السماوات والأرض كما جاء في التوراة، يحتاج الى إستراحة كي يزيل عنه التعب، فنكون قد الصقنا به صفة الانسان لا صفة الإله القادر على كل شئ. ولقد قلنا مقدما ان عدم توفر شرط صفة القدرة، بنظر فقهاء الشريعة موجب للجحود. ان القرآن الذي لم يبق شاردة

ولا واردة إلا أخذها من التوراة ثم عززهـا أحيانـا بشـكل يخالف أصلها في التوراة، يظهر انه قد فطن ـ لاسيما وان دوره يتأخر عن زمان موسى بنحو يدنو من ألفي عام ــ الى هـذه النقطـة فقـال: " ربكم ا لله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيـام ثـم إسـتوى على العرش يدبر الأمر ما من شئ إلا من بعد إذنه ". يونس/آية٣.

فالفرق بين إستراح، وبين إستوى على العرش فرق فـاحش. لأن من تلزمه الإستراحة يكون قد نسبنا إليه التعب فعد لها القرآن ليكـون ختام الستة أيام الجلوس على العرش لا الإستراحة.

٢٢ ـ هل الانسان صورة ا لله على الأرض ؟

هذا ما تقوله التوراة في التكوين اصح٢٦:١:

" وقال ا لله لنجعل الانسـان علـى صورتنـا كشـبهنا، فيتسـلطون على سمك البحر وعلى طير السـماء والبهـائم... فخلـق ا لله الانسـان على صورته صورة ا لله ".

إذا كان الانسان كما تقول هذه الآية " على صورتنـا كشـبهنا " فهذا يعني من الجهة الأخـرى ان ا لله مـن جهتـه علـى صـورة إنسـان أيضا، أو يمكن إعطائه صورة إنسان بكل إيجابياته وسلبياته ! وعندئـذ يمكن التساؤل: ما الفرق بين الاثنين إذن ؟ في حين اننا نعلم كما قيـل لنا، ان صفات ا لله اللازمة لا يمكن ان تكون عند غيره فهي خاصة به وليست عامة.

أما القرآن فيصف ا لله بانـه نـور: "ا لله نـور السـموات والارض مثل نـوره..". سورة النور،آية ٣٥. القـرآن، يلتقـي في هـذا الوصـف مـع

شعوب القفقاس وعبدة النار ومع قدماء المصريين الذين إعتقدوا على عهد إخناتون ١٣٧٥ــ ١٣٥٨ ق.م. بالاله الواحد وهو الشمس مصدر الحياة كما إعتقدوا وقالوا انه إله عام صالح لكل البشر وليس لصالح قسم معين من البشر، خلافا لما قالته شريعة موسى أو خصصته لصالح اليهود وحدهم.

٢٣ ـ قصة آدم وحواء قصة سومرية :

جاءت قصة آدم وحواء في التوراة وأخذها القرآن بدوره عنها. لكن القصة بالأصل مقتبسة من الأساطير السومرية. وقد وجدت مرسومة على حجر سومري قبل ألفي عام من وضع التوراة، فحوت عليها شجرة تتدلى منها عثوق التمر يجلس على يمينها رجل يلبس طربوشا ذو قرنين ومادا يده اليمنى لتناول التمر من النخلة. وعلى الجهة اليسرى جلست إمرأة على منصة وهي تمد يدها اليسرى الى التمر وخلفها إنتصبت حية على ذنبها واقترب رأسها من رأس المرأة(٨).

٢٣ ـ قصة آدم وحواء في التوراة :

" وأما ثمر الشجرة التي وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا... وقال لآدم لأنك سمعت لقول إمرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا لا تأكل منها: ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك". اصح ١:٣.

---

(٨) العرب واليهود، أحمد سوسة، ص ٣٧٥.

يخطر ببالي وأنا أنقل هذا النص التوراتي ان آدم وحواء قد عصيا الاله بأكلهما من الشجرة، لكنهما مع ذلك لم يموتا، كما قال لهما الله، فهل كان الله صادقا معهما عندما قال : لئلا تموتا؟

٢٤ ـ وقد جاء محتوى القصة في القرآن أيضا لكنه أبدل الحية بالشيطان

فقال : "ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالين". سورة الأعراف/آية ١٩. فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووری عنهما"... الى آخر الآية.

وضع الحجر الأساس للتفرقة وإتخاذها وسيلة للتسلط !

٢٥ـ قصة قابين وهابيل في التوراة :

تصف التوراة خلق الله آدم وتواصل فتقول في سفر التكوين اصح ٤: وما بعده: " عرف آدم إمرأته حواء فحبلت وولدت قابين.. ثم عادت فولدت هابيل. وكان هابيل راعيا للغنم وكان قابين عاملا في الارض ". (تكوين ١صح ١٤).

ثم تقول وكأنها تريد إيجاد سبب للشقاق بين الأخوين وتجعله وسيلة تشريعية إلهية لبذر بذور التفرقة وإيجاد بداية لخلق العنصرية والإقتتال فقالت:

"وحدث بعد أيام ان قابين قدم من ثمار الارض قربانا للرب وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه زمن سمانها فنظر الرب الى هابيل وقربانه ولكن الى قابين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قابين جدا وسقط

وجهه.. وحدث ان كانا في الحقل أن قام قابين على هابيل أخيه وقتله فاستحق اللعنة ". من خلاصة القصة يفهم ان السبب لهذه الفتنة ـ والفتنة أشد من القتل ـ هو الرب الكريم.

فهل تجوز نسبة الفتنة الى الرب؟ لدى التحليل لابد لنا اما ان نكذب الخبر لأن فيه نسبة الفتنة الى الرب والفتنة ليست من صفاته، أو أن نصدق الخبر وننسب الفتنة الى الرب وهذا جحود.

لكن الخبر لانستطيع تكذيبه لأنه موجود في القرآن. فقصة قتل الأخ لأخيه جريمة في القرآن، فما هو الأستنتاج الصحيح؟

في بعض الحالات المشابهة نسمع من اهل القرأن من يقول ان التوراة قد حرفت وزورت.

لكننا هنا في هذه الحادثة لايمكننا اتهام اهل التوراة بتزوير أو تحوير قصة قابين وهابيل لأن القرآن شاهد لهم على صحتها ومؤيد لها فما الموقف من هذا التناقض؟

"وأتل عليهم نبأ إبنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. قال لأقتلنك، قال إنما يتقبل ا لله من المتقين... فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين". هذا ما قالته سورة المائدة، آية ٢٧ وآية ٣٠.

٢٦ ـ نقل وتحريف بسوء نيّة :

قصة قابين وهابيل هي بالأصل قصة سومرية عرفت باسم الأخوين أيميش وأنتين، ومكونة من نحو ٣٠٠٠ كلمة، إقتبستها التوراة ووضعتها تحت إسم قابين وهابيل. لكنها جاءت خلافا للأصل

السومري الذي يقول ما خلاصته: ان الإله أنليل إلـه الهـواء قـد خلـق أخوين، أينتين وجعله لرعايـة الأشـجار والـزرع والرخـاء علـى وجـه الارض وجعل الثاني أيميش لتوفير البقر والعجول واللـبن. ثـم حصـل نـزاع بينهمـا إنتهـى بتحكيـم إلهـة الهـواء، الى الصلـح بـين الأخويـن وشرب الكؤوس. لكـن التـوراة حـورت القصـة وأنهـت الـنزاع بـين الأخوين بالقتل وأخذت منها وسيلة لتبرير القتل حتى بين الأخوة [٧].

لقد ألبست هذه القصة في التوراة عن قـابين وهـابيل الـتي نقلتهـا من السومرية بتحريف مخالف لأصلها لتكـون نموذجـا للإثـارة وخلـق العداوة التي تؤدي الى القتل دون مبرر، ففتحت بابـا للإقتتـال لتكـون نموذجا للخلف وللقـادمين مـن الأجيـال. أليـس ترويـج هـذه القصـة وأمثالها في التوراة إنما جاء لتبرير العنصرية وإستغلال الغير وإستعباده ؟ ألا تعـني ان الـرب قـوة غـير ملتزمـة ولا متوازنـة ؟ طبيعـي ان العقـل السليم لا يمكن ان ينسب الى الرب بناء على صفاتـه المعروفـة، واقعـة تدل على غـرس التفرقـة بـين أول أخويـن علـى وجـه البسـيطة لكـي تستمر من بعدهما الى أجيالهما، لأنها إنما تدل علـى الطيـش وتجـانب صفة العدالة. من هذا نستدل على ان غرض التوراة من تحريف القصة عمدا هو تثبيتهـا الفـتن وجعلهـا جـزءا مـن التشـريع لتكـون مصـدرا للتفرقة بين الأنســاب ومـن ثـم تسـليط فئـة علـى أخـرى وإسـتغلالها إقتصاديا وجعلها ركيزة للأعمال والتصرفات اللاحقة المخالفة للعدالة والضمير الانساني.

وتؤخذ هذه التفرقة في عصرنا وسيلة لبواعث إقتصاديــة لتحقيـق

---

(٧) انظر نص القصة في كتاب الأساطير السومرية، مصدر سابق، صفحة ٧٧ وما بعدها.

إستغلال طبقة لأخرى وشعب لآخر باسم مشيئة الرب.

ربما اعتقد بالفعل ـ تحت تأثير هذه المزاعم ـ جماعات بشرية بما فيها شعب " الله المختار" بأن من حقها إستغلال بقية الشعوب طالما ان الأنسان بين ملعون وبين مقدس.

والأمثلة على هذه الظواهر بارزة خصوصا في عهد الأمبريالية وتطور قدرتها، فهي بارزة في الحياة الدولية على العموم.

٢٧ـ قصة الطوفان وأصلها :

كان معظم الناس وحتى حلول القرن التاسع عشر بل وحتى بداية القرن العشرين يعتبرون التوراة من وجهة نظر تسجيل الحوادث التأريخية البحتة، على أنها كتاب إنفرد بذكرها، حتى ولو انهم لا يشاركونها في المحتوى الأساطيري الذي تحمله.

وما ان ظهرت نتائج الحفريات والتنقيب عن الآثار خصوصا في وادي الرافدين ووادي النيل، وبعد ان حلت رموز الكتابة المسمارية والهيروغليفية وتبلور علم الأثار وبعد ان ظهرت للعيان الحقائق التأريخية وعرف المهتمون بدراسة الآثار، من ترجمة ألواح الأساطير والمخطوطات الحجرية ـ ان التوراة انما كانت ناقلة ومقتبسة دون ان تذكر مصادر اقتباسها، وقد تحدثنا عن قصص وأخبار سابقة ونتحدث الأن عن قصة الطوفان.

فقد جاءت بها التوراة وأغفلت مصدرها وهو الأساطير السومرية، بل وأعطت لها اسباب ونتائج تغاير أصل الأسطورة السومرية. فللسبب في وقوعها عندها هو رغبة الرب، لتبني عليه من

جديد جدران التفرقة بين بني البشر كما فعلت من قبل في قصة ولدي آدم، قابين وهابيل. وفي هذه القصة تحذو حذو سابقتها فتخلق التفرقة من جديد لأسباب تافهة بين أولاد نوح سام وحام ويافت وتنسب ذلك طبعا الى إرادة الله، فهي تضع بذلك حجر أساس جديد لتفرقة الشعوب وإيجاد سبب مقنع لتفوق شعب الله المختار واصطفاء السامية اليهودية.

٢٨- اقتباس التوراة لقصة الطوفان من الأدب السومري:

لقد ظهر بعد الأكتشافات الأثرية،ان التوراة كانت قد اقتبست هذه القصة بتفاصيلها من آداب الأساطير السومرية والبابلية القديمة، من ملحمة جلجامش المكونة من اثنتي عشر لوحا طينيا بالخط المسماري عثر عليها في شمال العراق. وقصة الطوفان هي من الأدب السومري البابلي الذي يعود الى ما قبل أكثر من ٤٠٠٠ سنة [٨].

ولبيان خلاصة قصة الطوفان ومحتوياتها وأسبابها التي ذكرت في الألواح السومرية، أنقل اليك جزءا مما كتبه عنها عالم الآثار صاموئيل كريمر في كتابه الأساطير السومرية .

" بعد أن تم إكتشاف وحلّ رموز اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش البابلية وذلك منذ ما يزيد على ربع قرن، إتضح بان قصة الطوفان التي دونها كتاب التوراة العبرانيون لم تكن أصلية وإنما من المبتكرات السومرية التي إقتبسها البابليون عنهم فوضعوها في صيغة

(٨) انظر ملحمة جلجامش للعالم الآثاري طه باقر، سلسلة الثقافة العامة، بغداد ، صفحة ١١٣.

إسطورة الطوفان البابلية " [9].

" في عام ١٩١٤ نشر أرنر يوبيل ترجمة محتويات كسرة طين تضمنت الثلث الأسفل من لوح سومري ذي ستة حقول وجدت ضمن مجموعة ألواح نفر في متحف الجامعة (فلادلفيا) وكانت محتويات الجزء الأكبر من هذه الكسرة تدور حول إسطورة الطوفان. ولسوء الحظ ان هذه الكسرة الوحيدة من نوعها ما زالت غير مستنسخة حتى الآن. و لم أتمكن من العثور في إسطمبول أو في فلادلفيا على أية مادة تسهل لي مهمة إصلاح الكسور من محتويات هذا اللوح ".

" لقد تضمن الجزء الأول من الملحمة موضوع خلق الانسان والحيوان والمدن الخمس التي وجدت قبل الطوفان، وهي اريدو وبادتبيرا ولاراك وسيبيار وشروباك. ولسبب غير معروف قدر للجنس البشري الهلاك بواسطة الطوفان ".

" ويظهر ان أحد الآلهة ولعله آنكي إله الماء، قد حزن لذلك فعقد العزم على إيجاد وسيلة ما ينقذ بها الجنس البشري من الهلاك فتوجه الى زيوسودرا الملك المتواضع الورع ـ نظير نوح في التوراة ـ وأخبره بقرار الآلهة المخيف ونصحه بأن ينقذ نفسه ببناء سفينة كبيرة. ولكن المقطع الذي تضمن تفاصيل بناء هذه السفينة قد كسر. وفيما يلي ذلك من النص فيه وصف لنصف أحداث الطوفان ". الى هنا أكتفي بما كتبه صاموئيل كريمر في كتابه " الأساطير السومرية ".
وفيما يلي نوجز قصة الطوفان كما وردت في التوراة.

---

(٩) الأساطير السومرية، مصدر سابق، صفحة ١٤٨.

٢٩ ـ قصة الطوفان في التوراة :

" ورأى الرب ان شر الانسان قد كثر في الارض وان كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب انه عمل الانسان في الارض وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الارض الانسان الذي خلقته، الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت لأني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب ". التوراة، تكوين/ الاصحاح ٦:٦ وما بعده. ثم تواصل التوراة في الاصحاح ٦: فتقول:

" إصنع لنفسك فلكا من خشب حفر فها أنا آت بطوفان الماء على الارض لأهلك كل جسد فيه روح حياة تحت الشمس كل ما في الارض يموت ". وفي اصح ٧:١ قالت: " قال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بنيك الى الفلك لأني إياك رأيت بارا لدي في هذا الجبل".

٣٠ ـ لحظة تأمل حول القدرة والندم :

بناء على ما جاء في الكتب الثلاثة عن نسبة القدرة المطلقة لله، فالمنطق يقضي أن من له القدرة التامة على خلق السموات والارض، والاتيان بطوفان يغرق الأحياء، لا شك له قدرة على إصلاح مخلوقاته أو بالأحرى كان لا يخلقها إلا وهي صالحة وكاملة الصفات خصوصا وقد قالت التوراة : " فخلق الله الانسان على صورته صورة الله " تكوين اصح ١ :٢٦.

وقال القرآن : " ان الله لا يخفي عليه شيء في الارض ولا في السماء هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء لا اله إلا هو العزيز الحكيم ". آل عمران/ آية ٥.

ومن جهة أخرى فإن نسبة الندم الى الرب كما جاءت في آية التوراة أعلاه، تدل على ان هذا الرب جاهل بالغيب ولذا فقد عمل ما يستوجب ندمه فقرر الرجوع عنه. والجهل صفة تخالف صفات الرب والتي منها: العلم بكل شيء مقدما. ونسبة الجهل الى الرب تكون إعترافا بجهله بالغيب وإلصاق الجهل به موجب للجحود." وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم مافي البر والبحر وما تسقط ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين." سورة الأنعام/ آية ٥٩. فالقدرة والعلم متوفرتان فيه مقدما.

ومن الناس من يمتحن جهازا صنعه بنفسه ليرى أين تكمن معايبه او نواقصه. فالامتحان إمتحان الأشياء أو الأشخاص أو التجارب تصح نسبتها للأنسان نظرا لقصر علمه وعدم استطاعته التطلع بالغيب فهو انسان يستفيد من تجاربه ويطورها ويتوصل الى مرتبة أعلى في الاستفادة منها. أما الرب الخالق القادر العالم بالغيب فلا تلزم له التجربة أو الخبرة فكيف نوفق بين ندم الرب وعلمه بالغيب؟

٣١- موقف القرآن من الطوفان :

ان موقف القرآن من الطوفان هو كموقفه المعتاد في تكرار كثير من محتويات التوراة بعد صقلها، علما ان التوراة قدمت قصة الطوفان وبيت القصيد عندها هو تقسيم البشرية من جديد تقسيما عنصريا تفوقيا - فبدأت بتمييز أبناء نوح بعضهم على بعض ففوقت سام ونسله على أخويه حام ويافت ونسليهما.

في حين ان القرآن وهو بعيد عن العنصرية إستهدف من ذكر قصة

الطوفان التهديد بقدرة الرب على الانتقام في اليوم الآخر ممن لا ينضوي تحت لواء الشريعة الجديدة، ووعد الصالحين بالنعيم وفق سياسة ما يسمى بالترهيب والترغيب ـ وإليك ما قاله القرآن بصدد الطوفان:

"واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا اليّ ولا تنظرون." سورة يونس / آية ٧١.

" فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا من كذبوا بآياتنا فأنظر كيف كان عاقبة المنذرين". سورة يونس /آية ٧٣.

" واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولاتخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون". سورة هود/ آية ٣٧

" حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا إحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ". سورة هود/ آية ٤٠

" وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم". سورة هود/ آية ٤١

هذا ما جاء في القرآن حول قصة الطوفان السومرية وهذا لا يختلف من حيث التعبير دون المقصد، عما جاء في التوراة لكن الأخيرة أخذت من أولاد نوح وسيلة للتفرقة العنصرية والتفوق العنصري.

الفصل الثالث

٣٢ ـ قصة نوح وبني نوح في التوراة :

نقلت لكم قصة قابين وهابيل،السومرية الأصل، وكيف ان التوراة اقتبستها من الأدب السومري وخلافا لأصلها الذي انتهت فيه الى الصلح بين الأخوين، فقد انهت التوراة قصتها عن اول ولدين لآدم: بأن قتل فيها قابين أخاه هابيل، فشرعت بذلك قانون الأحتراب وتفضيل بعض على بعض باسم الرب.

والأن عادت، بعد ماروته عن قصة الطوفان وهلاك البشرية الى نوح واولاده فأخذتها ثم بنت عليها ما يوافق من غاياتها، فأتخذت من نوح هذه المرة مقام آدم جديد، وله ثلاثة أولاد سام وحام ويافت. ولخلق النزاع والتفرقة بينهم تروي التوراة لنا قصة سكر نوح وتهتكه لتخرج منها بتفضيل سام ولعن يافت وحام وذريته بني كنعان(راجع تكوين/٥، اصحاح٩). وهنا وضعت من

جديد أساسا للتفرقة والتفوق على الغير. والتفوق في الحقيقة يعني التفوق الإقتصادي وتسخير الغير وإستغلاله. وهكذا بموجب تشريع التوراة المذكور، فقد قسمت البشرية الى ممدوح وملعون ومُتفوق ومُتفَوق عليه لتبرير السيطرة الإقتصادية على الشعوب. واليكم نص ما قالته التوراة في هذا الخصوص:

" وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك، ساما وحاما ويافث، وحام هو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت الأرض. وابتدأ نوح فلاحا وغرس كرما. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا الى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما الى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما. **فلما إستيقظ نوح من خمره علم ما فعل به إبنه الصغير، فقال ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته. وقال مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدا لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم**

". تكوين أصحح ٩: ١٨ وما بعده.

مرة أخرى يتجلى فقدان صفة العدالة، التي يفترض أهل الشريعة وجودها في الله ـ فيما نُسِبَ الى الرب من الاعتباط المنافي لأبسط عناصر التفكير السليم. فما نُسِبَ الى حام أبي كنعان من " جرم " مخالف لأهم شرط في قواعد فقه الجريمة ـ هذا إذا سلمنا جدلا ان رؤية العورة جريمة ـ ألا وهو وجوب توفر النية المسبقة

عند الفاعل، إذ هي ركن من أركان الجريمة. فبدون وجود النية عند الفاعل لا تكون هناك جريمة بل حتى ولا مخالفة. وواضح ان حاما أبو كنعان حين أبصر عورة أبيه الخَمِر المتعري تهتكا، كان خالي الذهن مما رأى، أي بدون تصميم سابق، بدليل انه لدهشته مما رأى قام لفوره باخبار أخويه بما رأى فبادرا الى ستر عورة أبيهما. ثم انه إذا كانت رؤية العورة، ولو بالصدفة غير المقصودة، تستحق عقوبة اللعن الأبدي وليس على الرائي وحده بل تستمر على نسله من الأجيال القادمة للأبد، ألم يكن إذن من الأحرى والأجدر بالمرئي نوح نفسه، الذي تعتبره التوراة ثم القرآن بانه نبي موحد صالح، أن لا يتسبب في إحداث ذلك المشهد سيما وهو يعلم انه ليس وحده في البيت ؟

٣٣ ـ نوح والطوفان في القرآن :

" ولقد نادانا نوح فَلَنِعْمَ المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين". الصافات، آية٧٥ /٧٧. ويواصل فيقول " وتركنا عليه في الآخرين... سلام على نوح في العالمين. انه من عبادنا المؤمنين. ثم أغرقنا الآخرين. وان من شيعته لإبراهيم ".٨٣ منه " كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر، فدعا ربه اني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فإلتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر ". سورة القمر/آية ٩ وما بعدها. فالقرآن يمجد

نوح ويرفع منزلته ويعتبر الطوفان إنما كان عقوبة لقومه الذين ازدجروه. ولا يأتي على حادثة سكره ونومه عريانا ولا على ذكر أسماء أولاده وما وقع لأحدهم من حادث برؤية عورة أبيه.

٣٤ ـ السامية واللاسامية :

يتشكى آل يعقوب لحد اليوم ويرمون أعداءهم ـــ بالحقيقة يرمون كل من يريدون معاداته ـ بانه " ضد السامية "، يعني ضد فرض تفوق أبناء سام على أبناء وذريات أخويه حام ويافث، وخصوصا على أبناء حام أبي الكنعانيين. ويرشقون كل من لا يؤمن من البشر، باسطورة " الشعب المختار " بانه معاد للسامية، حتى وان كان المرشوقون ـــ وفقا لكتبهم ـــ هو من ذرية سام نفسه. مثل أبناء إسماعيل. وهكذا فهم يحملون هذا البعبع للناس ـــ بالأحرى ضد الناس ـــ دون أن يوضحوا كيف توصلوا الى هذا التفوق على الغير وما هي أسبابه.

٣٥ ـ الرسول لوط :

وبعد ان بينت التوراة سلوك نوح حسبما يريده "ا لله " وخرجت بتفضيل أحد أبنائه المدعو سام ومن بعده ذريته على جميع البشر، تحدثت عن سلوك الرسول لوط.

والتوراة تعتبر لوط من أولياء ا لله ومن أسلاف آل يعقوب الأوائل فتقول عنه في الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين:

ان ا لله أراد ان يدمر القرية التي هو فيها فأرسل ا لله اليه ملاكين طلبا اليه لسلامة حياته الخروج من القرية التي هو فيها وبعد خروجه منها: " فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء " تكوين اصحح ١٩: ٢٣.

٣٦ ـ أقديس أم سكير زاني ؟

ولكن ماذا كان سلوك لوط الذي إستحق بسببه النجاة دون غيره من الإحتراق بالكبريت؟ إسمع ما تقوله التوراة عنه ــ تكوين، اصحح ١٩: ٣٠.

" وصعد لوط من صوغر وسكن الجبل وإبنتاه معه لأنه خاف ان يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وإبنتاه. وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت البكر وإضطجعت مع أبيها. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد ان البكر قالت للصغيرة اني قد إضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه الليلة خمرا فادخلي إضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا، وقامت الصغيرة وإضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت إبنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر إبنا ودعت إسمه مواب، وهو أبو الموابيين الى اليوم. والصغيرة أيضا ولدت إبنا ودعت إسمه بن عمي وهو أبو بني

عمون الى اليوم ". تكوين اصح ٣٠:١٩.

يبدو ان جماع بنتي لوط بابيهما لم يمنع الرب من تقديـر لـوط وتعظيمه. وهذه المرة في القرآن.

٣٧ ـ لوط في القرآن :

" قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلـوا اليـك فاسـر بـأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا إمرأتـك انـه مُصيبهـا مـا أصابهم ان موعدهـم الصبح أليس الصبح بقريب. فلما جـاء أمرنـا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضـود ". سورة هود /آية ٨١. وهو مماثل لما جاء في التوراة عن لوط من التقديـر والتعظيم. وجاء في سورة الصافات، آية ١٣٣:

" وان لوطاً لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجـوزاً في الغابرين ثم دمرنا الآخرين ". والقول ـ فاسر بأهلك! يشمل بنتيـه دون زوجته.

يتفق القرآن مع التوراة فيما ذكرتـه بـل ويزيـد في إطـراء مقـام لوط. لكن لموضوع الإطراء في الحقيقة أسباب متناقضة بينهما. ففي حين تقص التوراة عن لوط قصة تلقيح بنتيه منه وتفخر بنسلهما الى اليوم، يطري القرآن لوطا كنبي مرسل والمرسلون عـادة معصومـون، فهل ان لوطا من المعصومين المكرمين ؟ يبـدو في عصرنـا هـذا رغـم إتفاق أو تأييد القرآن لمعظم ما جاء في التـوراة، يبـدو لي ان بينهمـا خلاف كبير في أغراض النصوص الواردة في كل منهما. ومنها قصة

بنتي لوط. لذلك حذفها القرآن. أعني حذف الجزء الخاص بتلقيح بنتي لوط من أبيهما.

٣٨ ـ تعليل حذف تلقيح بنتي لوط من أبيهما :

لعل السبب الداعي لهذا الحذف هو انه على عهد نزول التوراة لم يكن الناس بعد من التطور الاجتماعي، بحيث يرون في سلوك لوط وبناته ما ينافي التقاليد والسلوك الاجتماعي السائد حينذاك. ولذلك فقد ذكرت التوراة تلك الواقعة كما هي. أما في عهد القرآن وهو يتأخر عن زمان موسى بنحو ٢٠٠٠ سنة، فقد تطورت خلالها التقاليد الاجتماعية عما كانت عليه. لذا لم يعد بالامكان نقل كل ما ورد في التوراة بحذافيره بصدد بنتي لوط أو ما شابهها الى القرآن نقلا كاملا. وهناك مثال آخر لإختلاف مماثل بين وقائع التوراة وبين وجهة نظر القرآن سأتي عليه عند الكلام عن إبراهيم. وقصة لوط تدفع للتساؤل:

٣٩ ـ هل ان البشرية تسير وفق علاقات التطور الاجتماعي أم تسير وفق منهج مبرمج لها مقدما ؟

أ ـ مسألة التطور الاجتماعي ـ أنا أعرف مقدما ان الذين لا يؤمنون بالتطور البشري وعلاقته بوسائل الانتاج أيا كان مستواها، سوف لا يوافقوني على ما أوردته من تعليل لعدم نقل قصة بنتي لوط الى القرآن وقلت فيه ان السبب هو تفاوت الزمن

وبالتالي تفاوت التطور، وذلك:

أولا - إما لأنهم يعتقدون بان شعائر الله وكتبه تشريعات ثابته موضوعة مقدما ولا علاقة لها بالتطور ولا تتأثر به. وهم هنا سيلجأون الى وَصْم التوراة بالتزوير على لوط وتبرأته مما نسبته اليه وافتخرت بنسله. لكن هذا الزعم مدحوض لأن التوراة وأهلها يقدسون لوطا تلبية لرغبة الرب ولإصطفائه العرقي. وهم لا يرون بأسا في شربه الخمرة أو إضطجاع بنتيه معه بل هم يفخرون بنسلهما منه الى اليوم. لذلك من المستبعد القول انهم قد حوروا التوراة وزوروا القصة على الرسول لوط.

ثانيا - سيرفض الذين لا يؤمنون بالتطور تعليلي الحذف، لأنهم يخشون انهم لو أخذوا بقبول بديهية التطور الأجتماعي بتفاوت الزمن - التي قلت أنها ادت الى حذف قصة تلقيح بنتي لوط من القرآن - فأنهم بذلك سيقلعون عن فكرة وجود التشريعات الثابتة أي المبرمجة مسبقا برمجة الهية وبأقلاعهم عنها سيجحدون بالرب او بشعائره، وهكذا يظلون في جدل مع انفسهم.

(ب) بأعتقادي، انه تسهيلا لفهم مسألة التطور الاجتماعي، يجب الانطلاق من عزل قضية "خلق" الكون عن قضية "خلق" البشرية اي القول بعزل الخليقتين عن بعضهما - فالأولى خلق أو وجود الكون، ولنظام الكون علاقات خاصة وصفات ثابتة غير متبدلة ولا متطورة بل أزلية ثابتة على العموم ولا تحتمل الجدل.

والثانية هي خلق البشر وهي عملية أصلها التطور ومتطورة على الدوام وخاضعة لعملية النشوء والارتقاء.

٤٠ ـ "خلق" الكون و"خلق" البشر عمليتان متعاقبتان :

إذن يجب علينا فصل بحث قضية الخليقة ـ " خلق " الكون ـ عن قضية خلق البشر وبداية وجوده على الأرض.

فخلق الكون أي وجوده لايخضع الى التطور بل يتصف في أصوله في الثبات والديمومة، في حين ان وجود البشر ـ وهو حدث عارض بالنسبة لوجود الكون ـ واستمراره خاضع للتطور الفكري والأقتصادي الخ. عليه يجب بحث " خليقة " الانسان منفصلة عن بحث "خلق" الكون، ولو ان الثانية ـ "خلق" البشر نتيجة للأولى.

٤١ ـ من يأخذ بفصل الخليقتين :

سبق ان لخصت قصة خلق الكون كما قالها السومريون: إذ قالوا ان الأصل هو البحرمنذ الأزل. وحذت على منوالهم التوراة: واضافت بأن" كانت روح الله ترف على البحار".

ولم يخرج القرآن عن ذات المغزى بأن قال ـ وكان عرشه على الماء.

فهذه الشرائع الثلاث السومرية والتوراة والقرآن تفصل قصة خلق الكون عن قصة "خلق البشر" أي قصة خلق آدم وحواء ـ علما ان فارق الزمن بين احداث الخليقتين آلاف الملايين من السنين، وتتفق ثلاثتها على ان الأصل هو المادة مثلما فسرها

السومريون.

والقول بأن الأصل هو المادة يأخذ به في عصرنا الحالي الماديون الطبيعيون. فهم يقولون اننا وجدنا الكون كما هو مادة قائمة واقعية، فنأخذه كما هو دون تعليلات روحية لاسند لها من الواقع المادي.

ان كرتنا الأرضية، الكوكب التاسع في المجموعة الشمسية من النظام الكوني المكون من مجموعات من الكواكب المستقرة نسبيا على علاقات غير متغيرة متوازنة وأزلية بموجب قوانين طبيعية مستقرة خاصة بحركتها وعلاقة أجزاء كل مجموعة ببعضها. وان الحياة على كوكبنا ظهرت عرضا وذلك لوقوعه بين المجموعة الشمسية في موقع مناسب وملائم للحياة عليه.

وثابت علميا ان ظهور الحياة اللاحق على كوكب الأرض لا يعد كجزء من القوانين التي تتحكم في حركة الجموعة، وإنما هي نتيجة لها ولموقع الأرض الملائم من حيث بعدها عن الشمس.

ثم ان وجود الأنسان حدث متأخر جدا عن تكون الأرض ويخضع لقوانين النمو والتطور على سطحها. ومما يدعم قضية الفصل بين الخليقتين هو انه من الثابت اليوم، أن عمر البشرية على الأرض لا يزيد على عدة مئات من ملايين السنين ويقال ان اقدم عظام بشرية عثر عليها في كهوف كردستان قدر عمرها بـ ٩٦ الف سنة.في حين ان عمر الأرض يزيد على عدة مليارات من السنين.وتذكر المعاجم العلمية الحديثة ان عمر الأرض يقدر بخمسة مليارات من السنين.

٤٢ ـ عمر البشرية بحسب اقوال التوراة :

ذكرت التوراة في سفر التكوين اصح ٥ واصح ٩ واصح ١١ بالحرف الواحد، أسماء نسل آدم حسب التسلسل حتى نوح فكان مجموعها عشرة أجيال حتى حدوث الطوفان، ثم أعطت أسماء سام بن نوح ـ بعد الطوفان ـ ونسله بتسلسل الأجيال حتى وصلت بهم الى ابراهيم وكانوا عشرة أجيال أيضا. وأعطت مجموع الأعمار للعشرة أجيال الأولى بنحو ٧٥٦٠ سنة تقريبا وبمعدل ٧٥٦ سنة لكل ظهر وأعطت للعشرة الثانية حتى ابراهيم بنحو ٣٠٠٠ سنة تقريبا بمعدل ٣٠٠ سنة للظهر الواحد. فإذا علمنا ان ابراهيم عاش في اوائل الألف الثاني قبل الميلاد، فيكون مجموع عمر البشرية كلها حتى يومنا هذا(على حساب التوراة) بنحو ١٤ الف سنة تقريبا. فأين هذا من عمر الأرض؟

الخلاصة:

الأن اننا نقف أمام قضيتين: الأولى: وجود الكون ونظامه الثابت الأزلي والثانية: هي وجود الأنسان على الأرض (التي هي جزء من الكون) وقضية تطوره الفكري والاجتماعي الخاضع لظروف معيشته واسلوب سدّ حاجاته الاقتصادية وتأثيرها المقابل على إدراك وقوة تفكيره، وهو تأثير متقابل داخل المجتمعات البشرية.

٤٣ ـ مُخْ الانسان عضو يتطور :

تبيّن لنا مما سبق ان " الخليقة " من شقين، شق يخص الكون وما يتحرك فيه بشكل دائم لا يتغير ولا يخضع للتطور (التبدل) ولا

لإرادة الانسان، في حركته. فهو ذو برنامج ثابت ـ تلك هي القوانين التي نسير عليها مثلا، المجموعة الشمسية ونظام علاقاتها ببعضها.

الشق الثاني ـ هو ما يخص " خلق " الانسان أو وجوده على الأرض، الذي هو جسم حي ينمو ويتطور ويتفاعل مع ما حوله وفقا لظروف وشروط معينة. والتطور الفكري هو من خواص الانسان. وهكذا تحدث في حياته سلسلة تفاعلات فكرية ثم حركات إيجابية منها العمل والانتاج وتقصي الوقائع ـ العلوم والاكتشافات. ومنها أيضا تفاعلات سلبية كالحروب والتسلط الاقتصادي والسياسي. والخلاصة: ان التطور يجري في واقع عالمنا بحسب تصرفات الكائنات البشرية على الأرض وبدافع من ضرورات البقاء. لهذا فغرض البشرية إقتصادي، سواء أكانت البشرية ضمن مجتمع طبقي أم لا طبقي.

صحيح ان إمكانية هذه التصرفات البشرية على الأرض ناشئة أخيرا عن وجود الانسان في الكون، لكن الكون الذي أفاد الحياة على الأرض، لا يمارس رقابة أو تعقيبا أو برمجة على الأفكار ولا على حركات وسكنات التطور الاجتماعي، وإنما أوجد لها الظروف الملائمة الطبيعية فقط. وأما التطور الاجتماعي فيبقى يسير ويخضع في مسيره للعلاقة مع عمل الانسان نفسه. هذا بغض النظر عن الأخذ بالرأي المادي القائل ان الكون موجود، أو الرأي الغيبي القائل ان الكون " مخلوق ".

٤٤ ـ على كرتنا الأرضية تطور الانسان :

على كرتنا الأرضية، التي هي جزء من هذا الكون تعيش كائنات بشرية وغير بشرية. كل إنسان منا يحس ويلمس ويقرأ ان البشرية خلال خمسة الى ستة آلاف سنة المنصرمة من حياتها قد تطورت إجتماعيا وتوسع أفق تفكيرها تبعا لحاجتها الاقتصادية. فهي لم تبق على ما كانت عليه ـ رغم ان ظواهر التطور ليست متساوية في كل مكان وهذه حاله طبيعية ودليل على التطور المستمر لمجموع البشرية ـ بل أنها إستمرت تتطور وتؤثر بدورها وفقا لحاجتها على المواد التي تستخدمها وهذا ما يشحذ من تفكيرها ويوسع أفقه. وهكذا إستمر تفاعل الفكر مع المادة. وشواهد هذا التطور بادية لكل عين ولا يمكن نكرانها.

ولهذا من الصعوبة ان نجد توافقا بين الأخذ بفكرة التطور البشري المستمر وبين القول بان كل شئ مقدر وجوده أو حركته مقدما وان الانسان مُسيّر لا مُخيّر، كقولهم ان ما كتب على الانسان والشعوب ينفذ بشكل حتمي تطبيقا لما قيل:

" قل لن يصيبنا إلا ما كتب ا لله لنا ". سورة التوبة/٥١؛ ثم قوله : " قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك عمن تشاء وتذل من تشاء وتعز من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير " سورة آل عمرا/٢٦؛ ثم قال : " ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على ا لله من شئ في الارض ولا في السماء ". سورة إبراهيم/٢٨.

ان خلاصة هذه الآيات تدلنا على ان حياة البشر كما لو كانت مبرمجة مسبقا وليست خاضعة للتطور الاجتماعي التأريخي.

لكننا لو أخذنا بهذه البرمجة في حياة البشر، قد نقع في تناقض، لأن معنى ذلك اننا سنعفى من مسؤلية أعمالنا الخاطئة، التي هي جزء من منهاج البرمجة وليست من إرادتنا، لأن الإرادة لا تتفق مع البرمجة الموضوعة على الانسان مقدما والذي يعمل بموجبها مُسيّرا لا مُخيّرا وستكون حتى هذه الإرادة جزءا من البرمجة الموضوعة مقدما من "الإله الخالق" وهذا إشكال سبق للمعتزلة ان عالجته بانكار الجبرية. ويبقى الأخذ بقاعدة التطور الاجتماعي، وهي لم تعد نظرية بل هي واقع مادي محسوس، هو الطريق السوي لتعيين تصرفات الانسان الضارة وشجبها وتقدير التي لصالح المجتمعات وسلامتها ورفاهها والعمل بها.

يعني هذا ان يصبح تنظيم المجتمعات والمجتمع الدولي خاضعا لصالح الأكثرية البشرية في كل بلد و مُدار من قبلها، ولا يُعترف فيه لفئة أو عناصر معينة بالأفضلية لها وكسب المنافع على حساب الأكثرية كما تمارسه الامبريالية والصهيونية في عصرنا، أزاء الشعوب النامية وغيرها.

الفصل الرابع

أهل الكتاب مختلفون في الغاية والوسيلة

٤٥ ـ ماذا تُعَلمْ التوراة أهلها وما غايتها من ذلك ؟

لو أردت تلخيص ما تعلمه كتب موسى في التوراة لأهلها لوجدتها لا تتعدى ما يأتي :

١ ـ " خلق الله الكون في سبعة أيام ثم إستراح ". تكوين اصح ١: ٢

٢ ـ خلق آدم وحواء (البشر) ليعيشا في الجنة ـ " وأما ثمرة الشجرة التي وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها ". تكوين اصح ١: ٣؛ عليه:

٣ ـ ان غاية الله تظهر واضحة انه إنما خلق آدم وحواء ليعيشا في الجنة.

٤ ـ لكن الحية (الشيطان) أغرتهما فأكلا من الشجرة، فأخرجهما الله الى الأرض ـ وهذا معناه ان مشيئة الله لم تنفذ.

٥ ـ أو يفهم من هذا ان الله القادر العليم بالغيب العارف مقدما

بما ستفعله الحية بآدم وحواء قد غير رأيه في سكن آدم وحواء الجنة، لذا أدخل عليهما الحية لتغريهما، فأخرجهما. والتغيير لا يدل على الثبات في الرأي فضلا عن انه ينافي العلم بالغيب.

٦ ـ ان عقلية آدم وحواء الركيكة ودهاء الحية هما أيضا من صنع الله. إذن على من تقع المسؤلية ـ على آدم وحواء أم على الحية أم على خالقهم ؟

إن هذا التساؤل ينتفي لو قيل لنا : ان الحياة قد وجدت على الكرة الأرضية وفقا لأحوال وشروط البيئة الطبيعية المتحصلة على وجه الأرض كالماء والشمس والهواء الخ. وهو الواقع الذي توصل اليه علماء وفلاسفة التطور من صدر الدين الشيرازي الى دارون، من ان الجسم البشري الحي الحالي قد حصلت عليه تطورات خلال ملايين السنين حتى وصل الى ما هو عليه الآن ـ بغض النظر عما إذا كانت الأرض وهي جزء من الكون مخلوقة أم أزلية الوجود.

٤٦ ـ والتوراة تقص علينا :

ان الله قد أحدث نزاعا مباشرا بين أول ولدين لآدم هما قابين وهابيل أدى الى ان يقتل الثاني الأول: تكوين اصح ٤: وما بعده؛ ونسبت التحريض على القتل أو السبب المباشر له الى ذات الله. المنطق والتشريع يعتبران المسبب للقتل عن قصد شريكا في الجريمة. والفتنة أشد من القتل (القرآن). ولو نسبنا التحريض للإله، نكون قد نفينا عنه صفة العدل. وإن لم ننسبه للإله فنكون قد كذبنا التوراة وهو كتاب الله (القصة مؤيدة في القرآن أيضا).

٤٧ ـ لقد أغرق ا لله الأرض

لأن أهلها كما تقول التوراة لم تعد ترضي الرب لكثرة ذنوبهم عدا نوح فقد إختاره الرب ليسْلم هو وعائلته من الغرق ـ إنظر اصح ٦:٦.

بإغراق البشر تحت الماء كان ا لله يجازيهم بما كتب هو عليهم مقدما. ومما قالته التوراة فهمنا ان باستطاعة ا لله ان يخلق بشرا لا يذنب فهو أمر غير عسير عليه لا في التوراة ولا في القرآن. "إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كنْ فيكون". سورة النحل/٤٠. والمنطق يدفع المرء للقول: أما كان عليه ان يصلحه أو أن يخلقه صالحا مقدما، ذلك لأن خلق المقصر تقصير.

٤٨ ـ ولعل بيت القصيد

الذي رمت اليه التوراة من كل ما جاء فيها بعد الطوفان هو تشريع الخلافات بين أولاد نوح سام وحام ويافث للوصول من ذلك الى تثبيت شعار " شعب ا لله المختار ". فقد فضلت التوراة سام وذريته باعتبارهم شعب ا لله المختار، على أخويه الآخرين وذريتهما وجعلت ذلك التفضيل قانونا عنصريا نسبته للإله في القرون المتقدمة. وقد تطور على أساسه في عصرنا الحالي الى التسلط الاستعماري فالامبريالي، ولغرض الاستحواذ على الخامات والسوق.

٤٩ ـ شعب ا لله المختار

بعد ان مهدت التوراة بوضع الأسس لظهور شعب ا لله المختار على مسرح الحياة، **أخذت تشير الى أسماء أسلاف هذا الشعب فخصت أولا إسم إبراهيم بالذات فوعدته بالأرض لبنيه وذريتهم.**

ثم كررت لإبنه إسحاق الوعد بالبنين والأرض معا وأخيرا تعهدت لإبنه يعقوب (إسرائيل) وذريته وأختصتهم بمحبة ا لله، الذي أعطاهم أرض فلسطين وحق إبادة أهلها. وجعلت ذرية إسرائيل فوق الجميع. وقد كررت هذه الوعود في الفصول التالية أيضا. أما البدل لكل هذا لو سألت عنه لأجابتك التوراة: هو عبادة ا لله الخالق وتقديسه وتقديم القرابين له. والتوراة تعَلمُ قراءها ان ا لله خلق الكون والبشر وانه فضل عليهم جميعا، آل يعقوب وجعل بقية المخلوقات في خدمتهم. وان تشريعاته هي لهم وحدهم وهم غير مقيدين بتطبيقها أزاء غيرهم من البشر. هذه أهم الأهداف الأساسية للتوراة وألخصها:

١ ـ موجودية ا لله الخالق.

٢ ـ تحقيق رعايته لآل يعقوب وتفضيلهم ثم تسليطهم على كل المخلوقات وتسخيرها لأغراضهم.

٣ ـ تقديم تفويض إلهي لهم لإستلاب أرض الغير وإستملاكها بالقوة ومحق أهلها.

٤ ـ وأباح لهم لتحقيق أغراضهم التسلك بكل مسلك حتى الدعارة وإتخاذ كل وسيلة كانت لضمان مصالحهم وبقاء وجودهم كشعب مختار يحيا كل منهم حياة واحدة لا غيرها وفق القاعدة التي تقول : " الغاية تبرر الواسطة ".

٥٠ ـ إبراهيم في التوراة والوعد الإلهي :

ان تطبيق الإباحية في السلوك، سلوك ـ الغاية تبرر الواسطة ـ نجد أمثلة كثيرة عليها في التوراة، سواء في سلوك الأسلاف، قبل موسى ـــ

مثل ابراهيم واسحق وتسخيرهما الرب والشريعة للكسب غير المشروع، أم في سلوك أخلافهم الذين جاؤا بعد موسى ـ ومن الذين ذكرتهم التوراة في نصوصها: رحاب الزانية (انظر يشوع اصح ٢و١٧:٦،٢١.) ونقرأ عن ابراهيم في التوراة:

" وإجتاز ابراهيم الأرض الى مكان شكيم الى بلاطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض ـ أرض فلسطين ـ انظر تكوين اصح ١٢:٦ وما بعده.

" وظهر الرب لابراهيم وقال لنسلك إعطي هذه الأرض " تكوين اصح١٢:٧؛ وفي مكان آخر في اصح ١٣:١٤ نقرأ: " وقال الرب لابراهيم بعد إعتزال لوط عنه: إرفع عينيك وأنظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لأن جميع هذه الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد ". تكوين اصح١٣:١٣. ثم تقول في الاصحاح ١٢:١٠: " وحدث جوع في الأرض فانحدر ابراهيم الى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديدا ".

٥١ ـ إبراهيم في مصر :

" وحدث لما قرب أن يدخل مصر انه قال لساراي إمرأته " اني علمت انك إمرأة حسنة المنظر فيكون إذا رأك المصريون يقولون هذه إمرأته فيقتلوني ويستبقوك، قولي انك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك " اصح ١٢:١١ تكوين.

" ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأخذت المرأة الى بيت فرعون فصنع الى ابراهيم خيرا بسببها وصار له غنم وبقر

وحمير وأماء وأتن وجمال ". تكوين اصح ١٥:١٢؛ " فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي إمرأة إبراهيم " تكوين اصح١٧:١٢؛ " فدعا فرعون ابراهيم وقال: ما هذا الذي صنعت بي لماذا لم تخبرني أنها إمرأتك. لماذ قلت هي أختي حتى أخذتها لتكون زوجتي ".تكوين اصح ١٨:١٢.

واضح أنها كانت خطة مدبرة صريحة على لسان ابراهيم للاستفادة من جمال زوجته في الكسب غير المشروع وبالوسيلة غير المشروعة، إذ لو انه لم يخف أنها زوجته لما تقرب منها أحد لكونها متزوجة ولكنه كان لا يحصل بسببها على مال وبقر وحمير واتن من مال غير مشروع. ولقد ظهر من زجر فرعون لابراهيم على فعلته، ان فرعون الملحد أو غير المؤمن كان يتمسك بالتقاليد الاجتماعية والأخلاق فلا يقترب من متزوجة، ويرعى الحرمات أكثر من ابراهيم " المؤمن " أبو الأنبياء وأول الموحدين على الأرض.

٥٢ ـ الغاية تبرر الواسطة :

ان فرعون كما قالت التوراة قد زجر ابراهيم الموحد على فعلته. ويبدو من هنا ان أبو الأنبياء هو الذي وضع الشعار الذي أخذته منه الامبريالية والصهيونية وهو شعار "الغاية تبرر الواسطة ". حتى لو كانت الواسطة هي الزوجة. وقد كرر ابراهيم، كما تروي التوراة، نفس التصرف عند عودته من مصر الى أرض كنعان. وهذه المرة مع أبيمالك ملك فلسطين. إقرأ ما تقوله التوراة عنه.

٥٣ ـ إبراهيم وزجته في أرض كنعان :

" وانتقل ابراهيم من هناك الى أرض الجنوب وسكن قادش وشور وتغرب في جرار وقال ابراهيم عن ساراي إمرأته هي أختي. فأرسل أبيمالك ملك جرار (ملك الفلسطينيين) وأخذ سارة. فجاء الله الى أبيمالك في حلم الليل وقال له: ها انت ميت بسبب المرأة التي أخذتها فانها متزوجة ببعل فقال أبيمالك ألم يقل هو لي أنها أختي وهي أيضا بنفسها قالت هو أخي، بسلامة قلبي ونقاوة يدي فعلت هذا..فبكر أبيمالك في الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام على مسامعهم... ثم دعى أبيمالك ابراهيم وقال له ماذا فعلت بنا وبما أخطأت حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطيئة عظيمة. أعمالا لاتعمل عملت بي. فأخذ أبيمالك عنزا وبقرا وعبيدا وأماء وأعطاه لابراهيم ورد اليه إمرأته ". تكوين اصح ٢٠ :١ وما بعده.

وبهذه القصة تشهد التوراة نفسها مرة أخرى على إحترام غير المؤمنين بالنبوات مثل فرعون في مصر وأبيمالك في أرض كنعان للعلاقات الزوجية والتقاليد الاجتماعية خلافا لأولئك الذين احتكروا معرفة الرب.

٥٤ ـ اسحق ورِبقة :

وتتكرر نفس القصة في التوراة وبطلاها هذه المرة اسحق وزوجته ربقة لنفس الأغراض والمقاصد فاكتسب اسحق بن ابراهيم عن طَريقها مالا من محيط أبيمالك. وتقول التوراة ان أبيمالك حين اكتشف ان رِبقة ليست أخت اسحق قد عزره ولامه على فعلته. مما

تدل على ان أبيمالك وهو شخص عادي يخشى المعصية أكثرمن اسحق - راجع اصح ٢٦ :١ تكوين.

الوعد الإلهي لاسحق

ومع تكرار التظاهر بان الزوجة هي " أخت " وليست زوجة للحصول من وراء ذلك على كسب غير مشروع، يتكرر الوعد الالهي هذه المرة لاسحق - بن ابراهيم - ولذريته كالتالي:

" تغرب في هذه الارض فأكون معك وأباركك لأني لك ونسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمته لإبراهيم أبيك ". تكوين اصح ٢٦ :٣؛ ثم يتكرر الوعد له مرة أخرى بالنص التالي : " واكثر من نسلك كنجوم السماء وأعطي نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض ". تكوين اصح٢٦ :٤ ؛ونقرأ في تكوين اصح ٢٦ :٥ ما يلي: " ومن اجل ان ابراهيم سمع لقولي وحفظ ما يحفظ أوامري وفرائضي وشرائعي فأقام اسحق في جرار " .

٥٥ ـ منزلة إبراهيم في القرآن :

كلنا نعرف منزلة ابراهيم عند المسلمين، فهو عندهم أبو الموحدين وأبو الأنبياء. وبحقه قال القرآن :

" قولوا آمنا با لله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط.وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ". سورة البقرة /١٣٥ ؛ علما ان عمر واو العطف بين ابراهيم وموسى يمتد نحو

٧٠٠٠ سنة، هي الفرق بين زمانهما.

٥٦ ـ وجه واحد وغرضين مختلفين

(ابراهيم في التوراة وابراهيم في القرآن) : معروف جدا ان أهل التوراة يقدسون ابراهيم ويلتصقون به. لكن ما هو سبب تقديسهم هذا له وما الذي أعجبهم فيه ؟ لعل الذي أعجب أهل التوراة بابراهيم، هو في عيون أهل القرآن منقصة ومثلبة بحق ابراهيم لا يرتضون إلحاقها به. ومع ذلك كلا الطرفين يدافعان عنه.

ان غرض الجماعة الأولى وهم أهل التوراة هو: ان الغاية تبرر الواسطة، حتى لو كانت الواسطة رذيلة. فلا تحديد عندهم لشرط الواسطة طالما تجلب المنفعة الشخصية لهم (وطبعا ان من يبيح استخدام الواسطة الرذيلة لا شك انه يبيح أيضا الغاية غير المشروعة). وعنهم أخذت الامبريالية الحديثة هذا المبدأ والذي سمي بمبدأ ميكافيلي. وانه طبعا المبدأ الصهيوني الذي تضمنه كتاب التوراة فالمهم عندهم هو ان تربح وتصل الى غايتك (خصوصا مع الأغيار) بغض النظر عن أنها منفعة أو ربح مشروع أو غير مشروع.

على هذا فهم لا يرون في سلوك ابراهيم مع فرعون ثم مع أبيمالك ما يشين.

أما موقف الجماعة الثانية :

وهم أهل المسيحية والاسلام فانهم لم يكتشفوا جديدا، ولم تكن لديهم قصص أو تفاسير أخرى لوجود الانسان على الأرض، فساروا

بخصوص نظرتهم الى البشرية على منوالْ التوراة وقلدوها وحذوا حذوها في شروح قصة خلق البشر ثم إصطفاء الأشخاص التي جاء ذكرها في التوراة، مثل نوح وسام ومن بعدهما ابراهيم الذي أطلقوا عليه اسم أبو الأنبياء، لكن دون أن ينسبوا اليه سلوكه مع فرعون ولا مع أبيمالك، ذلك ان القرآن قد جاء بعد زمن موسى بألفي سنة تقريبا، تطورت البشرية خلال هذه الحقبة نحو التقدم الاجتماعي بحيث لم يعد ممكنا فيها نسبة وقائع مشينة الى نبي كابراهيم يراد منهم تقديسه. لذلك حذفت من كتبهم سيرته مع فرعون ثم مع أبيمالك وبقي مقدسا عندهم كما كان عند أسلافهم. أرجو أن أكون مصيبا في تحليلي هذا.

٥٧ ـ سِيَر توراتية :

لكن التوراة مليئة بسير أشد قبحا وتتعارض مع الكتب الأخرى. فهي تبيح لأفرادها عند تعاملهم مع من ليس من آل إسرائيل بأستخدام أي وسيلة مهما كانت. ومن نماذج السير السياسية وصور السلوك المشين هو إباحتها ليس الكذب بل حتى الزنا والبغاء والارهاب والتجسس والاغتيال في خدمة أغراضها. وقد رفعت المنفذين لها الى مصاف القديسين في كتاب يدعى انه خطاب الله أو منزل منه. وللتدليل يكفي ان نذكر لكم السير التالية من التوراة أزاء من هم ليس من آل يعقوب.

أ ـ رحاب الزانية

وملخص قصتها كما ورد في التوراة ـ دخل بيتها جاسوسان

(يهوديان) يتطلعان على المدينة قبل هجوم يشوع وأتباعه عليها، فدخلا بيتها وإضطجعا معها وأتما بمساعدتها مهمتهما كالآتي:

" فأرسل يشوع بن نون من شكيم رجلين جاسوسين سرا فذهبا ودخلا بيت إمرأة زانية اسمها رحاب واضطجعا هناك ".ولما سقطت المدينة على يد يشوع أمر بما يأتي:

"...ان يشوع قال للشعب إهتفوا لأن الرب قد اعطاكم المدينة فتكون المدينة وكل ما فيها محرما للرب **رحاب الزانية فقط تحيا هي** وكل من معها في البيت لأنها خبأت الذين ارسالناهما ". وهاكم أمر يشوع الى جنده بعد سقوط المدينة وانتهاء المقاومة:

"حرموا كل ما في المدينة من رجل وإمراة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". انما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب، انظر يشوع اصح ٢ :١ واصح ٦ : ٢٥،٢١،١٣

ب ـ سلوك إرهابي فظيع : تضمن أمر يشوع الذي أصدره لأتباعه بعد سقوط المدينة وإنتهاء المقاومة فيها ما يلي : " حرموا كل ما في المدينة من رجل وإمرأة من طفل وشيخ حتى البقر الخ.. بحد السيف ". بينما المقرر في الحروب أن لا يشمل القتال إلا المحاربين وحدهم. علما ان يشوع بن نون هو الخلف المباشر لموسى.

اني لأعجب كيف آمن الناطقون بالانجيل ثم بالقرآن في حينه بما قرأوه في التوراة وقالوا بأنهم جاءوا مصدقين لما فيها؟ ليس لهذا الإرهاب نظير إلا عند المستعمرين الغربيين في العصر الحاضر. فالآشوريون أسروا اليهود و لم يبيدوهم، رغم قسوتهم المعروفة.

وكذلك نبوخذنصر.

ج - **أسْتر هي سيرة أخرى** : والمثال الآخر هي سيرة أسْترْ وخلاصتها ان عمها وولي أمرها المدعو مردخاي وهو من المسبيين، إستغل جمال أستر وفتنتها فأدخلها عن طريق خدام الملك أحشويروش الى قصره بعد ان أخفى هويتها اليهودية. وعن طريق إستغلال جمالها ودسائس عمها صار لها تأثير على الملك، ففتنت بينه وبين وزيره هامان الذي كان كما تقول التوراة، يكره اليهود "لأن لهم سُنن مغايرة لجميع الشعوب وهم لا يعملون بسُننْ الملك". فتسببت أستر بوشايتها التي كان يدبرها لها عمها وبتأثير جمالها بالفتنة بين الملك ووزيره هامان وأدت الى إعدام الأخير لأنه يعادي اليهود. أنظر قصة أستر في التوراة.

د - **سيرة جوديت** : وخلاصة قصة جوديت التي جاءت في متممات التوراة ، انظر APOKRAPHEN (ملحقة بأصل التوراة) التي ترجمها للألمانية مارتن لوفثر طبع برلين ١٩١١ هي كالآتي :

جوديت أرملة يهودية ذهبت متطوعة الى قائد جيش نبوخذنصر، المدعو هوليفريس وقالت له " أنا إمرأة عبرية هربت من العبرانيين وجئت اليكم لأخبركم كيف تتسلطون عليهم دون أن تخسروا رجلا واحدا. وتوددت له متظاهرة بانها لا تحب اليهود وفتنته بجمالها على موائد الخمرة وأثارت شهواته فاطمأن لها وصار يسمح لها بالدخول عليه في محل إقامته الخاصة. وفي ليلة أكرعته مزيدا من الخمرة حتى نام، فقامت عليه وغمدت سكينا في قلبه ثم خرجت آمنة دون أن يشتبه بها الحراس لمعرفتهم بعلاقتها مع القائد

وفرت هاربة الى أهلها. وهذا مثال من الأمثلة المقدسة عندهم على الغدر وإرتكاب القتل والزنا معا.

هـ ـ سيرة أحودين جيرا : وهذا له قصة طويلة في التوراة خلاصتها انه جاء حاملا هدية الى ملك عجلون فسمح له بالدخول عليه. وبينما كان يقدمها اليه "فمد يده اليسرى وأخذ السيف من فخذه اليمنى وضربه في بطنه ".

٥٨ ـ الأخلاق في الشريعتين المسيحية والاسلامية :

على خلاف التوراة فقد تمسكت الشريعتين المسيحية والاسلامية ـ لا على أساس عنصري ـ بالمثل الأخلاقية والأمانة وحسن الجوار والعدالة، وآمنت بمبدأ المساواة في الحقوق الى حد كبير بين البشر. وأخذت بكثير من الأحكام التي يعود أساس بعضها الى أول تشريع مدني مكتوب هو شريعة حمورابي البابلي. لكن المسيحية والاسلام ظلتا عاجزتين عن تفهم قضية التطور البشري على الكرة الارضية، وأثر علاقات الانسان الاقتصادية والاجتماعية على تطوره. ولم تستوعبا بعد ان علاقات الناس فيما بينهم تُطبع بطابع نوعية وسائل الانتاج من حيث بساطتها أو تقدمها وتكيف حياتهم بموجبها. ثم ان القرآن مثلا يتمسك بوجود برنامج غيبي مرسوم من الله مقدما لكل إنسان. ويأخذ بتزهيد الناس عن الدنيا ومتاعبها ليشتروا الآخرة بالدنيا فيقول : " وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب والدار الآخرة خير " الأنعام، ٣٢؛ ومن الأمثلة على أخذه بالبرمجة الغيبية سلفا: قوله "هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير". التغابن، آية /٢.

وهذا معناه ان الانسان خلق ومعه منهج حياته مكتوبا أو مقـدرا مقدما دون إرادته، فهو مُسَيّر لا مُخيّر وان قدرة عقلـه وقـوة إدراكـه للصالح من الطالح، لاتغير من المكتوب عليـه، في حـين اننـا في الواقـع نرى ان قوة العقل وسعة البصيرة أمران يكتسبان مـن المحيـط وبتأثـيره خصوصا بالتعاون مع الآخرين في تنظيم الحياة الاجتماعية وتطويرهـا. لكنه خلافا لذلك نستنتج من الآية التاليـة : " ا لله يبسـط الـرزق لمـن يشاء من عباده ويقدر لـه وان ا لله بكـل شـئ عليـم ". العنكبوت /١٢. ومثل هذه الآراء والتفاسير لا تقدمهـا التـوراة وهـي تـترك للفـرد مـن أهلهـا حريـة الصـراع والانتفـاع في الحيـاة لا سـيما مـن الأجـانب (الكوييم وهم مـن غـير آل يعقـوب) ولا تقيـده بأيـة قيـود أخلاقيـة. ومثالها ما ورد في سيرة ابراهيم مع فرعون وأزاء أبيمالك.

وبعد فلا سياسـة الزهـد بالدنيـا صحيحـة ولا تكـالب الانسـان على جني المنافع غير المشروعة وإسـتغلال الغـير صحيـح، وإنمـا طريـق التعاون المتبادل ورعاية المصالح المتبادلة هو الطريق العملي وهـو مـا لم تأخذ به لا التوراة ولا شقيقاها اللاحقان.

٥٩ ـ التوراة إقتبست أحكاما من شريعة حمورابي :

سبق ان عددت بعض الأمثلة على إقتبـاس التـوراة مـن الألـواح السومرية : كقصة الخليقة وقصة خلق الانسـان وقصـة قـابين وهـابيل وقصة الطوفان التي أتيت على ذكرها، مع العلـم ان التـوراة في نقلهـا لتلك الأساطير قلبت أغراضها لصالح فلسفتها الاعتدائية العنصرية.

وتتمة لما مر أذكر الآن ان التوراة قد إقتبست من البـابليين أيضـا ما سمته بالوصايا العشـر مـع أحكـام المعـاملات مـن شـريعة حمورابـي

البابلي،الذي عاش ما بين ١٧٥٠ــ١٧٩٢ ق.م، وشريعته تعد أقدم شريعة مدونة عرفها التأريخ البشري. وهي مكونة من ٣٠٠٠ سطر بالخط المسماري نقشت على حجر كبير سمي مسلة حمورابي ونصبت في حينها في فناء معبد الأله " مردخ "، ثم نقلها الى خوزستان ـ جنوب ايران ـ ملك عيلام عام ١١٧١ ق.م. عند غزوه لبابل. ونقلها الفرنسيون عام ١٩٠٢ الى متحف اللوفر بباريس حيث مازالت شاخصة هناك.

٦٠ ـ متى كتبت التوراة

جاء موسى بشريعته ـ اسفار موسى في التوراة ـ في القرن الثالث عشر ١٢٢٥ قبل الميلاد، وظل اليهود يتبعونها ويضيف أحبارهم وأنبياؤهم اليها. وكل إضافة تعرف باسم كاتبها، الى ان جاء دانيال أحد أنبياء إسرائيل في الأسر في بلاد بابل وأعاد كتابة ماكتبه الذين قبله في القرن الخامس ق.م. وأما ما كتبه الذين جاؤا بعد دانيال وهم ١٢ نبيا فلكل منهم مقالة في التوراة تعرف باسمه وهكذا تمت كتابة التوراة.

٦١ ـ شريعة حمورابي شريعة عامة لنشر العدل وليست خاصة كشريعة التوراة:

ان حمورابي هو القائل ان الآلهة قد نادتني لأمنع الأقوياء من ان يظلموا الضعفاء ولأنشر العدل والنور في الأرض وأرعى مصالح الخلق. فشريعته عالمية. وعن شريعة حمورابي، كما قلت أخذت

التوراة معظم أحكامها. في سفري موسى " اللاوبين والخروج "[١٠] وما سمي بالوصايا العشر. لكن التوراة كما فعلت في كل إقتباساتها قد حورت من شريعة حمورابي المواد التي إقتبستها بأن حصرتها في خدمة آل يعقوب وحدهم دون غيرهم لأنها لا تؤمن بالبشرية بل تؤمن بآل يعقوب وحدهم الذين لهم حقوق تستوجب الرعاية. لذا فهي تنظر للانسان على انه الانسان الاسرائيلي أما غيره فتنظر اليه نظرة الأشياء. وان حُرمة القوانين في نظرها قائمة فقط بين الاسرائيلين وأزاء بعضهم وهم أحرار في تصرفاتهم مع الغريب (الكوييم). قولها : " يباركك الرب فتقرض أمما كثيرة وأنت لا تقترض وتتسلط على أمم كثيرة وهم لا يتسلطون عليك " ـ تثنية اصح ١٥: ٦.

٦٢ ـ المواضيع التي تضمنتها شريعة حمورابي :

حقوق العائلة، أمور الري والزراعة، علاقة الملاك بالفلاح، شؤون الرق، أحكام: العين بالعين والسن بالسن للطبقة الواحدة، تنظيم الأسعار، الأجور، الحبوب والتجارة، حرمة الوالدين، الزنا والاغتصاب عقوبتهما الموت، السرقة الليلية جزاؤها الموت أو قطع اليد والتعويض، الاتهام الكاذب وشهادة الزور عقوبتهما الموت، تحريم السحر، الديون وإستحقاقاتها والابراء منها، الربا، التعويض

---

(١٠) روبين، اصح٢: ١١، اصح٦: ٢، اصح٢٠: ١١، اصح١٩: ٢٦، اصح٢٤: ٢؛ خروج اصح٢١: ٦، ٢٤، ٢٥، ١٨، ١٩، ١٢، ١٣، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٢٩، ٣٢، واصح٢٢: ٢، ٤، ١١، ٧، ٩١٢، ١٤، ١٥

عن الأضرار الناجمة عن فعل الحيوان، تعدد الزوجات مباح عند الضرورة.

٦٣ ـ من إقتبس بدوره من التوراة ؟

لقد إستوحت الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا الهتلرية فلسفتهما من فلسفة التفوق العنصري في التوراة فاستندتا، خصوصا النازية، على التفوق العرقي الآري بدلا عن تفوق الشعب المختار ــ كما جاء في كتاب هتلر، كفاحي ــ ووجدت النازية في إستخدام الفذلكة العنصرية خير مبرر فيها لغزو شعوب أوربا كلها سنة ١٩٣٩، ثم هجومها الغادر على الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤١ وهو ما عرف بالحرب العالمية الثانية التي كلفت البشرية خمسين مليون ضحية تحمل منها الاتحاد السوفيتي وحده عشرين مليونا من الأنفس عدا التدمير الشامل للمدن التي طالها الاحتلال.

ومن مجرى الوقائع التأريخية قديما وحديثا يتضح باستمرار مقدار أثر شريعة التوراة على دفع ودعم السياسة الاستعمارية /الامبريالية والعنصرية منذ عهد النهضة الصناعية /العلمية في أوربا ثم في أمريكا

الفصل الخامس

٦٤ ـ خلاصة ما قالته الكتب الثلاثة :

ان خلاصة ما تضمنته كتب موسى في التوراة من مبادئ، حسب مطالعاتي، هي خمسة نقاط:

١ ـ قالت التوراة ان الكون والبشرية هما من عمل الرب ـ تكوين اصحاح ١ وما بعده ـ وعلى ان يعيش الانسان في الجنة ـ تكوين اصح ٣:١٥ .
وقد أخرج آدم وحواء بعد ذلك من الجنة لأن المرأة أكلت من الشجرة المحظورة، وان الرب إصطفى آل يعقوب (إسرائيل) بن إسحق بن إبراهيم وفضلهم بأنسالهم على العالمين.

٣ ـ وعدهم وأعطاهم الأرض، أرض كنعان(فلسطين).

٤ ـ وان أحكام شريعتهم " الالهية "تلقاها موسى مباشرة ـ فهي لهم وحدهم ومفعولها يسري عليهم فقط وأزاء بعضهم البعض. ولا مجال لسريان أحكامها على نسل من غير يعقوب، لذلك فهم لا يبشرون بها

عند الغير لأنه ليس من نسل يعقوب المفضل على العالمين - تكوين اصح ٢٦: ٣،٤.

٥ - حياة الانسان حياة واحدة - هي الحياة الدنيا - للانسان كما للبهيمة وبعد الموت يذهب الجميع الى الظلام الى الهاوية، من التراب والى التراب يعود (بدون قيامة) لذا فهم يقولون باغتنام فرصة الحياة والتنعم بها - جامعة اصح ٣: ١٩،٢٢.

يفهم من جميع هذه النقاط خصوصا الثلاث الأخيرة ان غاية الله وهدفه من خلق البشرية كلها كان لخدمة آل يعقوب ولاسعادهم في الدنيا على حساب الآخرين ليس إلا.

٦٥ - ما هو موقف الانجيل من التوراة ؟

ان المسيح لم يهاجم بادئ الأمر شريعة موسى وحصر نطاقها بآل يعقوب مباشرة، بل هاجم القائمين عليها من أحبار وفريسيين. لكنه في نهاية الأمر هاجم شريعة التوراة بذاتها بان هدم أهم أركانها، ألا وهو حصرها معرفة الله وبركته بآل إسرائيل كحكر عليهم وحدهم لأنهم " شعب الله المختار ". فعمم معرفة الله لجميع الأمم بقوله المعروف لتلامذته : "رُفِعَ إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الرب والأبن والروح المقدس" - إنجيل متي اصح ٢٨٨: ١٨،١٩،٢٠. وبذا كسر الطوق الذي ضربته التوراة حول معرفة الله واحتكارها لهم. وأما عن وجود حياة واحدة ما بعدها أخرى، فقد قال المسيح بوجود قيامة لكنها محدودة وفيها جنة محدودة على الصالحين وهم الأحياء بأرواحهم في السماء:

" وأما من جهة قيام الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل ا الله القائل : أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب وليس ا الله إله أموات ". متى أصح ٢٢: ٣١،٣٢. ان أهم ما جاءت به المسيحية ضد التوراة، هو أنها وسعت غايات ا الله وأهدافه التي جاءت في شريعة موسى، بان عممتها لصالح كل البشرية بعد ان كانت مقتصرة، كما تقول التوراة، على آل إسرائيل. وبذا تكون المسيحية قد هدمت أهم ركن من أركان التوراة حين عممت معرفة ا الله لجميع البشر فأبطلت شعار " شعب ا الله المختار".

٦٦ ـ ما هو موقف القرآن من التوراة ؟

أما القرآن فهو كالانجيل، فقد آمن بدوره بموسى وشريعته وآمن القرآن بالانجيل أيضا وأخذ عنه بان تكون الشريعة لكل البشر وأضاف اليها ثلاث نقاط جديدة:

١ ـ ان الغاية من خلق البشر هي عبادة ا الله."وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ".

٢ ـ الاعتراف بالقيامة التامة والثواب والعقاب لكل البشر : سورة الإسراء/١٠ ،الحج/٧ ،الأنعام/٣٢ .

٣ ـ قال بان كل شئ في الحياة مبرمج بعلم ا الله وإرادته، بشرا كان أم طبيعة ـ الأنعام/٥٩، التوبة/٥١.

بعد هذه الخلاصة أحب أن أذكر ما قاله القرآن عن التوراة.

٦٧ ـ ماذا قاله القرآن عن العهد القديم (التوراة) ؟

ان موقف القرآن في الحقيقة إيجابي جدا من العهد القديم، ولو

أردت ان أستعرض كل ما قاله القرآن بهذا الخصوص للزم لذلك تسويد صفحات كثيرة، لكنني سأذكر لكم أسماء السور التي تحمل أسماء قادة الكتاب المقدس بعهديه: آل عمران (عمرام)، يونس، يوسف، ابراهيم، مريم، ونوح. ثم أنقل اليكم مقتبسات أخرى عن رأي القرآن بالعهد القديم:

١ ـ المصطفى موسى ـ **" قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالتي وبكلامي فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين"**. سورة الأعراف /آية ١٤٣.

٢ ـ تمليك الأرض المبارك فيها ــ **"وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل "**. الأعراف /١٣٧

٣ ـ فضلكم على العالمين ــ " قال أغير ا لله أبغيكم الهاً **وهو فضلكم على العالمين "**. أعراف /١٤٠

٤ ـ دفاع عن موسى وكتابه ــ " قل من أنزل الكتاب على موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس ".الأنعام /٩١.

٥ ـ يعقوب، أسلافه وأخلافه ــ " وأوحينا الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا...وكلم ا لله موسى تكليما. النساء/١٦٣.

٦ ـ ميثاق " ولقد أخذ ا لله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا ". المائدة /١٢.

٧ ـ حصر نعمة ا لله والنبوة باسرائيل " وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة ا لله عليكم.. إذ جعل منكم أنبياء وجعلكم ملوكا

وأتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ". المائدة /٢٠.

ادخلوا ا لأرض المقدسة " يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب ا لله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ". المائدة /٢١.

٩ ـ هدى ونور " إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور". المائدة/٤٤.

١٠ ـ تفضيل آل إسرائيل " ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات ". يونس /٩٣.

١١ ـ إسرائيل إسكنوا الأرض " وقلنا من بعده لبني إسرائيل إسكنوا الأرض فاذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ". سورة الاسرء /١٠٤.

١٢ ـ هدى لبني إسرائيل " ولقد أتينا موسى الكتاب فلا تكن في مِرْية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل ". السجدة/٢٣.

١٣ ـ موسى والكتاب " وقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ". غافر /٥٣.

١٤ ـ نجاة إسرائيل "ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين". الدخان /٣٠.

١٥ ـ وفضلناهم في العالمين "ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين". سورة المجانية /١٦.

١٦ ـ حصر النبوة " ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب " الحديد /٢٦

١٧ ـ موسى قاتل " قال ربي اني قتلت منهم نفسا فأخاف ان يقتلون " سورة القصص / ٣٣.

١٨ ـ في ذريتهم النبوة " ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في

ذريته النبوة والكتاب ". سورة العنكبوت /٢٧.

٦٨ ـ لماذا هذا الموقف الايجابي؟

ان هذه الآيات وغيرها التي جاء بها القرآن إنما هي شاهدة على موقفه الايجابي للغاية من التوراة ومن فلسفتها وأحكامها، بل هي شهادة ـ أراد المرء أم لم يرد ـ تزيد أهل التوراة إصرارا على متابعتهم لها وتمسكهم بها.

أتصور ان إعتراف القرآن في الكثير من المناسبات بأفضلية آل يعقوب ووضع منزلتهم فوق الشعوب، فيه تعزيز لموقفهم العنصري، ودوافعه لا تخلو من أحد غرضين على ما يبدو.

الأول ـ هو وجود الاقتناع الحقيقي عند (القرآن) بمشروعية تفوقهم وما لديهم من كتاب ومنهج، وفي هذه الحالة لا موجب لدعوته لهم للتخلي عما لديهم من شريعة.

الثاني ـ أو أن يكون القصد من وراء ذلك هو دعوتهم وترغيبهم لاعتناق الشريعة الجديدة وجذبهم اليها عن هذا الطريق لاستغلال علاقة النسب بابراهيم. لكن مفعول الدعوة لهم بهذا الشكل ينتج العكس مما أريد منها، لكونه دعوة تضمنت قبل كل شئ، شهادة بصحة مسلكهم وهذا ما يدفعهم الى التمسك به لا تركه، ورفض الدعوة الجديدة.

نعم كان سيكون للدعوة مبرر ووضع آخر لو أنها وقفت موقفا سلبياً وإنتقاديا ومنطقياً ضد مسلكهم العنصري والاستعلائي ازاء الشعوب، كما فعل المسيح لكن، مثل هذا لم يحدث بل حدث مع الأسف إطراء لهذا التعسف العنصري بما في ذلك عدوانهم على الكنعانيين أهل فلسطين الذين يظهرون في الأرض كفارا والاسرائيليون مؤمنين.

أما ما جاء في القرآن من نقد لأتباع التوراة في بعض السور فلا يعني قط انه نقد للشريعة أو الكتاب أو الأنبياء اليهود.

٦٩ ـ حكمة ونبوة وأفضلية ـ

رأينا من قراءة النصوص القرآنية آنفة الذكر، ان القرآن في واقع الحال قد أيد التوراة في زعمها من ان لأهلها حق التفوق على غيرهم من الشعوب الأخرى.

والقرآن قد فضل أهل التوراة على العالمين. وطبيعي ان شعوب أهل القرآن ذاتها واقعة تحت ثقل ذاك التفضيل لكونها جزء من شعوب العالمين.

أنظر الآية ١٦ من سورة الجاثية تقول:

" لقد اتينا بني اسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ".

وأكثر من هذا فان القرآن قدأضاف مؤكدا على حق تفضيل أهل التوراة وما يتبع ذلك من نتائج، بان أعطاهم الأرض وذلك في نص الآية ٢١ من سورة المائدة إذ قال فيها :

"يا قوم أدخلوا الأرض المقدسة التي كتب ا لله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ".

مع ذلك يجب على المرء ان لا يجزع من تناقض ما يقرأه هنا مع العدالة المطلقة، وان لا يركن الى الرضا سيما وهو يجد من الجهة الأخرى، ان هذه النصوص قد أصبح منطقها اليوم يتناقض مع المصالح الوطنية لأكثرية الشعوب ومع حقوقهم الانسانية بما في ذلك حقهم

الشرعي الأصيل، وهو حق البقاء على أرضهم وبين أهلهم وذويهم، وحقهم في الدفاع عن أنفسهم من ان يصبحوا سخرة لأولئك المفضلين المسيطرين. انه رغم خطورة ما تأتي به أمثال تلك النصوص المقدسة من الاضرار بالمصالح الحياتية الجوهرية للناس يجب علينا ان ننتبه، الى ان عمرها قد بلغ الآن نحو ١٤٠٠ سنة تقريبا. لذا فلا ينبغي إلقاء اللوم على قائلها أو إحراجه، فالقول دلالته دائما مقرونة بزمانه وبعلاقته بالاسلوب الاجتماعي الاقتصادي السائد في تلك الحقبة. لأنه تبعا لتغير تلك العلاقة الاقتصادية تتغير الأحوال الاجتماعية، وبتغيرها وتطور وسائلها تتطور عقلية الانسان وهذه حقيقة إجتماعية مادية واقعة.

ويكفي ان نتصور مسيرة التطور التأريخي الذي حصل على عقلية إنسان كان سابقا يحرث أرضه ويزرعها ووسائل إنتاجه بقرة ومغراز خشبي، وعقلية إنسان صار يحرث أرضه ووسيلته هي ماكنة معقدة وقوتها ١٥٠ حصانا وبذوره إنتقيت وفُحصت إلكترونيا. ولعل هذا التطور ما سماه المسلمون بعملية الناسخ والمنسوخ. وهذه العملية يجب توسيع نطاق شمولها حينما تكون متجهة نحو التطور لأن ليس كل تغيير يمكن إعتباره تطورا. فنحن الآن نعيش في عصر تغيرت فيه سبل ووسائل الانتاج ـ الذي هو أساس مؤنة الحياة ـ عما كانت عليه قبل ١٤٠٠ سنة. فتغيرت تبعا لذلك عقلية الناس عما كانت عليه في ذلك الزمان وذلك المحيط الذي قيلت فيه تلك النصوص موضوعة التحليل. لذا لم يعد بالامكان الأخذ بها في عصرنا الحالي ولا في حياتنا الحالية المعقدة، لأنها أصبحت تناقض مصالح الناس وتقف لو أخذ بها، في وجه التطور العام.

ولا يمكن تفسير التأريخ بغير هذه الحقيقة الواقعة. فالشعوب التي

تعيها سوف تصل عـاجلا أم آجـلا لمـا تصبـو اليـه، فمـن لا يـدرك هـذه الحقيقة أو يعجز عن إستيعابها سيقع في خطأ يؤخر تطوره ويضر بمصالحه الأساسية، علما ان إلحـاق الضـرر المقصـود المتعمـد الموجـه ضـد مصـالح شعب ما، تقابله دائما منفعـة لصـالح مـن تسـبب أو مـارس إيقـاع ذلـك الضرر. ومعرفة المتسبب تكون بسيطة إذا كان المتسبب مكشوفا، ولكـن هناك حالات آخذة في الازدياد يكون فيهـا المسـبب غـير مكشـوف بـل متستر، وفي هذه الحالة يمكن إعتباره تلك الجهة التي وقع الضرر في النهاية لمصلحتها أي التي إستفادت من وقوعه علـى المتضـرر، بغـض النظـر عـن المنفذ المباشر الذي هو في هذه الحالة مجرد وسـيلة وذلـك حسـب المعادلـة التالية: ان الضرر في مصالح الطرف الأول يرمـز لـه بعلامـة نـاقص (−) . وبنفس الوقت فان هذا الضرر ذاته، يشكل بطبيعة الحال، منفعـة لطـرف المعادلة الثاني ويرمز له بعلامة زائد (+). وفرض العكـس صحيـح أيضـا. وتطبيق هذه المعادلة على النحو التالي:

سلب الأرض من طرف ما فيه ضـرر لـه. وكذلـك الاسـتيلاء علـى مـورد نفـط بطريـق مباشـر، أو بفـرض أسـعار معينـة لشـرائه، كلاهمـا يشكلان علامة ناقص عند أهل النفط وأهل الأرض. ولكن ماذا ستشكل علامـة النـاقص تلـك، في الطـرف الثـاني المستولي علـى الأرض أو علـى النفط بالتحكم باسعاره مثلا ؟ بلا شك أنها ستكون علامة زائـد لـه لأن النتيجة وقعت لصالحه.

لعلك تقول هذه بديهيات، نعم صحيح لكنها تعلـم الناشـئ منـا أن يتعود تحليل الوقائع السياسية في عالمنا بالرجوع الى ما يشبه قوانين المعادلات الجبريـة وقواعـد العتـلات ليصـل الى معرفـة المجهـول فيهـا.

فحينما يكون تشخيص الطرف المستفيد غير محدد بوضوح بسبب تستره أو التشويش الاعلامي الذي يقوم به، عندئذ يكون من وقعت في النهاية، النتيجة لصالحه هو المستفيد.

وأحيانا يوجه المستفيد أو المعتدي غير المباشر يوجه عن قصد أنظار الطرف المتضرر ضد جهة ثالثة ويلقي اللوم عليها مستغلا وجود تناقض ما أو يحاول خلقه بين المتضرر ، ضحيته، وبين الجهة الثالثة، ليفتح بذلك على المتضرر ما يسمى بجبهة ثانية وذلك تطبيقا لأساليب مأخوذة من فلسفة التوراة. ففي هذه الحالة، من مصلحة المتضرر أن يحذر من الانزلاق الى هذا الفخ وان يركز كفاحه أولا ضد التناقض الأهم.(مثال ذلك الحرب العراقية الايرانية وإتجاه الامبريالية الى تحويل التناقض بينها وبين العرب الى تناقض بين العرب والفرس).

٧٠ ـ محفزات التطور الاجتماعي ـ

أعود الى موضوع التطور الاجتماعي وموقفه من النصوص موضوعة التعليق:

ان التطور الاجتماعي العام في كل نواحيه بما فيه مسيرة نمو الوعي البشري، تؤثر فيه العوامل التقدمية وتدفعه للأمام كما تؤثر عليه وتحفزه أحيانا العوامل السلبية وبالتالي كلاهما يدفعانه الى الأمام. فالتطور الاجتماعي والاقتصادي النسبي في مجتمعاتنا خلال القرون التي تصرمت، لم تكن وراءه الدوافع التأريخية الذاتية الايجابية وحدها ــ التراث ــ بل كانت وراءه أيضا عوامل أخرى هي ردود الفعل السلبية ضد السيطرة الأجنبية المباشرة خصوصا التي جاءت الينا مع القرن الحالي. ثم أثر عوامل

الاقتباس من الثورات الوطنية التقدمية والثورات التي صعدت الوعي العام العالمي والانتفاضات المسلحة ضد الاستغلال والسيطرة سواء منها المحلية أو الأجنبية، ثم أثر عوامل التقدم العلمي و الصناعي العام في تلك البلدان التي سيطرت بسببه على الاقتصاد العالمي. هذه بمجموعها كان لها أثر كبير على وعينا السياسي التقدمي. ومنذ أربعينيات القرن العشرين دخل إضافة لكل ذلك عامل جديد وخطر جديد هو خطر تطبيقات أهل التوراة لمحتوياتها وتنفيذ أساليبها العسكرية والارهابية المخالفة للقوانين الدولية ضد مساكن وأراضي أهل القرآن والانجيل وخصوصا ضد بلاد الفلسطينيين التي يعتبرها أهل التوراة نقطة إرتكاز لسيطرة أوسع وأعم لما حولها.

ان كل هذه التطورات قد دفعت بالوعي السياسي العام الى إدراك التناقض الصارخ وتبلوره في مجال المصالح الحيوية الاساسية الاقتصادية الاجتماعية بين من يدعي التفوق العنصري والامبريالي وحلفائهم، ويسند ذلك التفوق الى أمر سماوي، وبين من يذهب ضحية هذا التفوق، سواء أخذ هذا التفوق، من العنصرية أو من لون البشرة أو الموقع الجغرافي الخ، اسبابا وستائر لسيطرته أو إحتلاله أو إمبرياليته.

هكذا فقد تبلور في عصرنا التناقض بين فلسفة أهل التوراة ومن يسندهم من الامبرياليين من جهة وبين الذين أصبحوا ضحايا " الشعب المختار" وتطبيقاته الاستعمارية الامبريالية. وضحايا هؤلاء هم في الحقيقة معظم شعوب العالم الثالث وفي مقدمتهم الشعب الفلسطيني.

٧١ ـ دعامتي التصنيع والديمقراطية :

"حكم الشعب بالشعب والى الشعب" : تسبب عن هذا التطور في

الوعي الفكري الاجتماعي العام ـ وفي الظروف العالمية الراهنة ـ انه لم يعد يكفي لمناهضة نفوذ الامبريالية ومقاومة الصهيونية وصد إعتداءاتها المباشرة وغير المباشرة ثم تحسين الأحوال المعاشية للسكان، الأخذ بالعقائد القديمة ـ مهما كان لها من مثل روحية عليا ـ ذلك لأن الصراع في عصرنا، وأي صراع كان، لا بد له ان يستند على دعامتين ماديتين:

الأولى ـ أن يأخذ باستخدام العلوم المادية الحديثة وتعميم الصناعة وتصنيع الزراعة.

الثانية ـ ضرورة الأخذ بالنظام الديمقراطي الشعبي. فكلا الدعامتين متلازمتين للنهوض والتقدم الوطني. فشعوب الاقطار العربية والاسلامية في منطقة الشرق الأوسط وما جاورها في تناقضاتها مع الامبريالية والصهيونية ولمقاومة أطماعهما لا بد لها من الأخذ بهذين الاتجاهين وهما إتقان العلوم والتكنيك الحديث في الصناعة والزراعة والثقافة العامة والأخذ بالنظام السياسي الديمقراطي الشعبي.

٧٢ ـ جهل وغفلة :

مثال شخصي قد تكون فيه تذكرة عامة لمن يريد: لقد مر عليّ وقت كنت أتساءل فيه أحيانا باشفاق مع نفسي عن سر تشكي أهل التوراة على مر التأريخ، من موقف الشعوب الأخرى منهم. ثم تبين لي ان العلة إنما تكمن في تعاليم التوراة ذاتها وناتجة عن تطبيقات أهلها لها باصرار وبقدر ما يتيح لهم الزمان والمكان ودون ضجيج.

ان مما ساعد على عدم توصلي حينذاك، كغيري من الناس، لمعرفة الحقيقة والتنور بها وأنا أتجاوز عهد الصبا ـ نقاط ثلاث صحّت

علي كما صحّت على كثيرين غيري.

النقطة الأولى ـ هو انني نشأت كغيري من الناس في بلد تقاليده إسلامية، وليس في تعاليم الاسلام أو كتابهم ولا في خطب جوامعهم أو كتبهم المدرسية أو بحوثهم الجامعية ما يمس أو ينتقد التوراة دستور اليهودية أو صاحبها ولا توجد إشارة تنبيه الى عنصريتها الاستعمارية المخالفة لشرائع العدل. بل على العكس يجد المرء مديحا لها. وقد أتيت على أمثلة له في صفحات مرت.

النقطة الثانية ـ هي انني ما ان تخطيت الصبا حتى صرت، نظرا لتحسسي بالظروف السياسية العامة المحيطة ببلدي، أكرع من سواقي الآراء الديمقراطية التي سبق لها ان أنهضت الغرب وفتحت له أبواب العلوم الحديثة. ومن مناهلها تشغفت بحرية الشعوب وبالمساواة بينها. وإتخذت بسبب من هذا الوعي طريقي للدفاع عن الشعب الذي أنا منه وله وعن حقوقه السياسية والاقتصادية المسلوبة من قبل المستعمرين والامبرياليين الذين دنسوا أرضه بقواعدهم العسكرية. فقد وثقت و لم أزل بان تضافر شعوب المنطقة المسلوبة حقوقها هو أحد الشروط الأساسية لتسهيل إسترجاع حقوقها. و لم أكن أعلم ـ " يا غافلين إلكم الله " ـ ان كتابا مقدسا عند احدى الأقليات الدينية ـ التوراة ـ يضمر بين سطوره، لغير أتباعه مثل هذا الحقد الدفين ويربي في أتباعه نزعة الاستيلاء، لكوني كنت حينذاك خالي الذهن من فلسفته. وكنت أفسر إنطواء أهله في بؤر سكنية خاصة بهم، هو خشيتهم من أذى الغير لهم و لم أكن أعلم ان القائمين على عقيدتهم يقصدون من هذا العزل، الوقوف ضد أنصهارهم أو مصاهرتهم مع باقي أعضاء المجتمع الذي

يعيشون فيه [11]. وان القائمين على أمور عقيدتهم يريدون إبقاء أهل هـذه العقيدة، مثل حصوة في قدر طبـخ الطعـام لا تنحـل ولا تـذوب، إلا قلة منهم ممن أدركوا وقائع الحياة المادية ونبذوا الخرافات والعنصرية. لذا فانـا أحث القارئ على الاطلاع على كتابهم وفلسفتهم.

النقطـة الثالثـة ـ لقـد إحتقـرتُ العنصريـة ومسـاوئها الـتي إنتشـرت حينـذاك روائحهـا الكريهـة مـن أوربـا، بعـد ان شـوه عنصريوهـا شـكل الصليـب فيهـا وأخمـدوا تعـاليم صاحبـه ودعوتـه للسـلام، واسـتخدموا العنصرية (تقليدا لفلسفة التوراة لكن ضد أهل التوراة ـ دون ان يصرحوا بذلك) وإتخذوا منها ستارا لسياسة الفتح والاستيلاء والاستعباد والتدمـير التي شملت القارة الأوربيـة بين الأعوام١٩٣٩ـ ١٩٤٥ مـن الغـرب الى الشرق. وما زلت أحتقر العنصرية وأهلها أينما كانوا.

هذه العوامل الثلاثة، والعامل الأول خصوصا، هو السبب في إبقـائي وكثيرين غيري من أبناء المجتمع في غفلة وجهل بالحقائق العدوانية المذهلـة التي تحتويها فلسفة التوراة وتـُعلمها لأهلها باسم الرب.

٧٣ ـ أين تكمن النظرة السلبية لأهل التوراة ؟

نصوص من تعاليم التوراة لأهلها:

أدرج أدناه نماذج قليلة من آيات التوراة، تثبت كيف أنهـا تعلـم أهلها الاستعلاء على الشعوب وكيف تغذي فيهـم اسـطورة الشـعب المختار المقدس. مع الاشارة الى موقعها في الكتاب:

([11]) ينبغي مع ذلك عدم إهمال دور الاضطهاد من الأكثريـة فـي إضطرارهم الـى العزلـة والانطواء بالتكتل مع بعضهم لحماية أنفسهم. (هـ. ع.)

شعب مقدس " لأنك شعب مقدس للرب إلهك إياك قد إختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض ". انظر كتاب موسى ـ الثنية، اصحاح ٦:٧.

فوق جميع الشعوب " مباركا تكون فوق جميع الشعوب لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا في بهائمك ". انظر تثنية، اصحاح ١٤:٧. (قارنها مع أقوال القرآن المماثلة بهذا الخصوص)

وتأكل كل الشعوب " وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع اليك : انظر تثنية، اصحاح ٧ : ١٦.

لا تشفق لا تصاهر " لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك ". تثنية، اصحاح ٧ : ٣.

ترثون شعوبا أكبر : يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوبا أكبر وأعظم منكم ". تثنية، اصحاح ١١: ٢٣.

إقرض ولا تقترض فتتسلط " فتقرض أمما كثيرة وانت لا تقترض فتتسلط على أمم كثيرة وهم عليك لا يتسلطون " تثنية، اصحاح ١٥ : ٦. راجع أيضا تسلسل رقم ٢، وتسلسل رقم ٥٧.

أنصح بالاطلاع على مزيد من هذه الآيات، خصوصا المثقفين وأهل الأوساط الجامعية وذوي الرأي والمهتمين بالمسائل العامة وخصوصا بالقضية الفلسطينية ــ أن يتصفحوا على الأقل الفصول الأساسية الأولى من كتاب التوراة ـ الكتاب المقدس، العهد القديم ــ وهي ما يسمى بأسفارموسى الخمسة.

٧٤ ـ علاقة الامبريالية بفلسفة التوراة وأثرها على فلسطين

بسبب الثورة الصناعية العلمية، التي تحققت أولا في أوربا خصوصا خلال القرن الثامن عشر، وكنتيجة لها ظهر الاستعمار (التسلط على أرض وثروات الغير) وتلته الامبريالية فاستولت تلك الدول الصناعية على منابع الخامات واقامت لها القواعد العسكرية، وسيطرت، على الأسواق والقوى العاملة الرخيصة في العالم وصدرت رؤوس الأموال، مع ما يتبع ذلك من الحروب بين الدول المتنافسة لتقسيم تلك المناطق بينها من جديد. فقد انفتح المجال لزمرة من أهل التوراة في المساهمة الفعالة في ذلك الاستغلال وتلك السيطرة.

فالاستعمار والاستيلاء ظاهرة دوافعها إقتصادية بحتة متعلقة وكنتيجة مادية أيضا بالوضع الاجتماعي الجديد الذي أوجدته الثورة الصناعية وقيام النظام الرأسمالي الاحتكاري ذو الشركات الصناعية الكبرى في أوربا الغربية وامريكا الشمالية.

ويلاحظ ان ظاهرة الاستعمار التي هي نتيجة للثورة الصناعية المادية والنظام الرأسمالي لم تكن مستندة روحيا أو أخلاقيا الى فلسفة الانجيل بل جاءت على النقيض منها.

لكن التوراة هي على خلاف الانجيل. إذ برجوعنا الى نصوصها نجد ان التوراة تبيح لأهلها التسلط على الغير وإستغلاله للمنافع الخاصة باهلها. وهذا ما يجعلني أستطيع القول، ان الاستعمار ثم الامبريالية قد وجدتا في فلسفة التوراة وفي تطبيقها ما يتفق وخدمة مصالحهما الخاصة.

ففي الآيات مارة الذكر المقتبسة من التوراة وجدناها تحث أهلها

على الاستيلاء والسيطرة المادية على الغير كجزء من تعاليمها الدينية، وهو ما يتفق مع خطط السيطرة الاستعمارية الامبريالية ويبررها معنويا وأخلاقيا.

لقد تحول ـ خصوصا خلال تطور رأس المال الأحتكاري في اوربا في بداية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر وما بعده ـ عدد من أتباع التوراة المقيمين في أوربا، من التجارة البسيطة الى إقامة المصارف الكبرى ثم توصلوا بالتدريج للمساهمة في محيط الصناعات ومراكز العلوم وتأسيس بيوت المال مع ما يجر وراءه من نفوذ سياسي لهم في أوربا وأمريكا. على سبيل المثال خصوصا في انكلترا أم النهضة الصناعية الرأسمالية توصل أحدهم المدعو بنيامين دزرائيلى عام ١٨٣٧ الى ان يصبح المتكلم بلسان حزب المحافظين في البرلمان، ثم تولى منصب رئيس الوزارة البريطانية ورفع لقب الملكة فكتوريا الى " إمبراطورة على الهند".

وفي المانيا القيصرية عرف منهم مير روتشلد الذي صار من أبرز المصرفيين ثم أخذت عائلته في القرن التاسع عشر مركز الصدارة والنفوذ السياسي في كل من:المانيا ـ فرانكفورت/ ماين ولندن وباريس وفينا والنيبال. وما زالت في لندن وباريس قائمة حتى الأن. ومنهم أيضا حاييم وايزمن ذي النفوذ العلمي الكيميائي الذي إلتحق بالبحرية الأنكليزية خلال الحرب العالمية الأولى وتولى رئاسة المجلس الصهيوني عام ١٩٢١ وفي عام ١٩٤٨ أصبح رئيسا لدولة اسرائيل.

هؤلاء وغيرهم وغيرهم من أتباع التوراة من أهل الصناعة والعلم في أوربا وأمريكا، قد مولوا الحركة الصهيونية التي اسسها ثيودور هرتزل. وهي حركة بعث لأحياء تعاليم التوراة والتمسك بها لمنع

ذوبان أتباعها في أماكن إقامتهم خارج الأرض المقدسة. ودعت الحركة الى تأسيس دولة إسرائيل في بيان أصدرته عام ١٨٩٦.

وقد تمكن هرتزل عام ١٨٩٧ ـ أي بعد عام واحد من إعلان حركته ـ من جمع رجال المال والصناعة من أتباع التوراة الموجودين في أوربا وأمريكا الشمالية في مؤتمر في بازل، فوضعوا الأموال الهائلة في خدمة الحركة الصهيونية الجديدة، حركة البعث التوراتي.

وبأزدياد نمو النفوذ المالي والاقتصادي للأثرياء من أهل التوراة على مجموع الاقتصاد الرأسمالي في القارتين أوربا وأمريكا، زاد تبعا لذلك نفوذهم السياسي العالمي. وهكذا فقد توافقت المصالح المادية وتلاحمت بين الجبهتين الصهيونية والامبريالية في خدمة الرأسمال الاحتكاري والتعاون السياسي ونشطت الحركة الصهيونية المنشودة بتطبيق نصوص التوراة بسلب أرض فلسطين. وهنا اتفقت أهداف حركة البعث الصهيوني الرأسمالي مع أهداف الاستيلاء الاستعماري خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ـ ١٩١٨ على فلسطين كهدف مزدوج. فالصهيونية ارادت تثبيت أقدامها في فلسطين والحلفاء (فرنسا وانكلترا) أرادوا السيطرة على فلسطين وما جاورها من الأراضي الخاضعة للامبراطورية العثمانية.وهكذا فقد حصل التواطؤ وتطور الحلف الواقعي بينهم واستمر حتى يومنا هذا.

فالعلاقة بين الصهيونية والامبريالية كما تبدو، علاقة عضوية متينة. وكلما زاد نفوذ رأس المال الصهيوني في الاقتصاد الغربي زاد نفوذه السياسي، خصوصا في أمريكا الشمالية بعد ان تحولت للولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، قيادة العالم الغربي.

ولقد ظهر للعيان ان الصف الأنكلوأمريكي، خصوصا وهو الذي

اقترح في منتصف الأربعينيات تقسيم فلسطين وقيام دولة يهودية وأخرى دولة فلسطينية على أرضها، لايزال هذا الصف حتى بعد صدور قرار التقسيم من هيئة الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧، لايزال لايطالب إسرائيل باخلاء ما تحتله(منذ عام ١٩٦٧) من الأراضي الفلسطينية. بل ان حكومات هذا الصف تقف حتى اليوم الى جانب إسرائيل وضد مصالح الفلسطينين وبقية الشعوب العربية كلها. وحكومات هذا الصف ـ الحلفاء ـ يتناسون الشعارات التي رفعوها خلال الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ـ ١٩٤٥ حول تقرير المصير للشعوب ويتجاهلون قرارات هيئة الأمم المتحدة بهذا الخصوص.

ان نضال الفلسطينيين من أجل إقامة دولتهم على أرضهم هو حق لهم تأريخي وشرعي وواقعي. وان سعي الشعوب العربية لتحرير إقتصادها من نفوذ الامبريالية هو أيضا نضال سياسي وعسكري ويشكل تناقضا ماديا ضد الأحتلال وضد ذلك النفوذ الذي يسنده وهو نفوذ الامبريالية.

خلاصات

١ـ شهادات متباينة

ان الكتب الثلاثة تعتبر وكأنها شهادات متناقضة في أهدافها وأساليبها، بل وأحيانا متعاكسة. فبينما أولها يقول: أنما خلق الله البشر ليفوق آل اسرائيل على غيرهم في دنيا لابعدها غير العدم ويستعرض تأريخ الخليقة مؤيدا هذا التفوق في كتابه المقدس.

يقول الكتاب الثاني ـ بتساوى البشر في الدنيا ويعمم شريعة الله لجميع البشر ويقول بقيامة محدودة لنخبة معينة.

ويقول الكتاب الثالث ـ ما خلق الله البشر إلا ليعبدوه وهم متساوون أمام الله ولا فرق بين القوميات، مع وجود قيامة شاملة يقرر فيها الثواب والعقاب. فضلا عن كثير من الفروق الأخرى.

فتناقض هذه الشهادات يفسدها وبالتالي لاتقيم الدليل على ان الكتب الثلاثة هي من مصدر واحد بذاته كما تقول وذوعدل

شامل، غيبي الوجود ومحيط بكل شيىء مقدما.

٢ ـ فلسفة إعتدائية

ينفرد الكتاب الأول بـأن لـه فلسفة إعتدائيـة صريحة عنصريـة تتعارض مـع الحقـوق البشـرية كلهـا. فلسـفة عنصريـة لأنهـا تزعـم بجلاء، بأن الكتاب الأول ـ التوراة ـ هو خطاب الله لموسى إنما جاء لمصلحة آل يعقوب وذريتهم وحدهم وفضلهـم على العـالمين اينمـا كـانوا. فالخطـاب شـريعة لآل يعقـوب أي انـه ديـن وقوميــة في آن واحد. والكتاب الثالث يشهد صراحة بصحـة مـا جـاء في الكتـاب الأول بهذا الخصوص، بما فيه إعطائهم الأرض (فلسطين).

٣ ـ تعاليم أشبه بكلائش

قوالب ـ ثابتة أم تطور تأريخي؟

ان الكتب الثلاثة رغم ما جاء فيها من تناقضـات، كـل منهـا قد نسب ماجـاء فيـه الى ذات الله، المصـدر الواحـد والى مشـيئته الثابتة. وبعضهم يعتبر تعاليمها أشبه بالكلائش الثابتة الصالحة على الدوام لكل عصر وزمان.

لكننا في الواقع المادي التأريخي نجد ان التطور الأجتماعي هـو سنة طبيعية للأحياء والتغير في علاقاتها ظاهرة لامفر منها. لذا فقد اصبح في العصر الراهـن مـن غـير الممكـن إسـتمرار الأخـذ حرفيـا بكلائش تلك التعـاليم وتطبيقهـا على المجتمـع الحـالي دون وقـوع نزاعات وصراعـات عنصريـة وفكريـة وإقتصاديـة وبالتـالي وقـوع

أضرار كبيرة بالمجتمع كله.

٤ـ الكتب المقدسة لاتحل المشاكل

ونصل بالتالي الى حقيقة واقعة هي ان العلاقات الاجتماعية السائدة بين المجتمعات وخصوصا في المنطقة العربية وما جاورها أو في أمثالها في العالم لم يعد ـ بسبب التطور الاجتماعي وتقدم التكنيك العالمي وزيادة تناقضاته الاقتصادية والأيديولوجية ـ لا تنظيمها ولا حل تناقضاتها ممكن وفق حكم يستند الى الكتب المقدسة التي تعود بدورها الى ما وراء ثلاثة الآف سنة أو تزيد وذات تفسير غيبي.

أعني لايمكن التنظيم وحل التناقضات ـ لاوفق الكتاب الأول وفلسفته العنصرية التي تنسجم مع مصالح الأمبريالية وتعمل لأسترقاق الشعوب الأخرى، كما نشاهد ذلك في إسرائيل.

ولا بالرجوع الى زمن تطبيقات الكتابين الآخرين الأنجيل والقرآن التي من أشكالها كانت القرارات البابوية وتعليمات الخلافة أو إجتهادات الامامة وغيرها يوم كان لها القول الفصل في الشؤون العامة.

نحن نعلم ان قد زالت تلك الأشكال من الحكم الفردي المطلق ـ خصوصا بعد التطور الصناعي في أوربا ـ لأنها لم تعد تنطبق على الواقع المادي المتطور وبالتالي فهي لم تعد تصلح في نهاية الأمر لرعاية مصالح الجماهير، رغم ما أدته في وقت ما، تلك الأشكال من خدمات تأريخية. وقد تصلح لحد الآن المبادئ الدينية لمن يريد

إعتناقها كوسيلة روحية تعبدية، تطبيقا لعبارة " الدين لله والوطن للجميع " ولكن ليست كوسيلة سياسية، أي يجب الأخذ بعزل الفرضين الدنيوي والأخروي عن بعضهما.

٥ ـ دعوة قد تقع في صالح الامبريالية وإسرائيل:

فقيام الدعوة من جديد للرجوع في تنظيم المجتمعات الى تطبيقات ـ نصوص إسلامية أو دينية أخرى. أنه حتى و ان كانت هذه الدعوة صادرة عن اناس حسني النية، يمكن ان يقال عنها أنها دعوة مباشرة أم غير مباشرة لاسناد الحكم الفردي المطلق السافر أو المستتر القائم في أجزاء من المنطقة وربما لقيت هذه الدعوة تشجيعا لها من بعضهم، سواء أكان القائمين عليه هم رجال الدين أو من المدعين له أو من السياسيين الأمعات أو كانوا من الحكام الكاريكاتوريين فهولاء كلهم يقمعون صوت شعوب المنطقة ويصادرون حرياتها. إذن فتلك الدعوة تقع سواء بطريق مباشر أو غير مباشر في صالح هؤلاء الحكام وطراز حكمهم الفردي السافر والمستتر. وبالتالي يقع الأمر كله بالبداهة في صالح الامبريالية والصهيونية. وذلك لأنه عن طريق تعميم الأساليب الفردية في الحكم يتم لمثل هؤلاء الحكام إبعاد الجماهير والمثقفين عن تفهم وتقدير الحكم السياسي الصالح لشعوب المنطقة ألا وهو الحكم الديمقراطي الشعبي ـ حكم الشعب بالشعب وللشعب، الذي ينسجم بل تحتمّه ظروف مرحلة التطور الاقتصادي العلمي التكنيكي. وبديهي ان إبعاد الجماهير عن تفهم هذه الحقائق يقع حتما ليس فقط في صالح اولئك الحكام وحدهم بل في صالح الامبريالية

والصهيونية.

٦ ـ عجلتا التحرر السياسي الاجتماعي هما الحكم الديمقراطي الشعبي واقتباس العلوم الحديثة :

ان حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية ومحاربة التأخر تمشي في عصرنا على عجلتين، عجلة التحرر السياسي والأخذ بأساليب الحكم الديمقراطي الشعبي وعجلة إقتباس العلوم الحديثة حثيثا في فروع الفيزياء والكيمياء والتكنيك الصناعي والعلوم المادية الأخرى - رغم المصاعب التي تضعها الامبريالية لرد هاتين العجلتين الى الوراء - مهما كلف الأمر وطال الزمن.

فما لم يدرك خصوصا أهل الكتاب الثالث هذه الحقيقة فلن يصعدوا ويتراكم الطَمْرُ حولهم.

٧ ـ الاسترشاد والتطوير هو أمر طبيعي :

قلت ان الكتب المقدسة لم تعد قادرة على حل مشاكل البشرية في عصرنا الحالي وذلك ليس بسبب تصوراتها الغيبية المتنافرة فقط، بل وبسبب تناقضاتها مع حركة تطور العلوم الطبيعية والسياسية ومع نتائج ذلك التطور ككل وما أحدثه من نتائج تقدمية في فروع الصناعات والذرة والفضاء الخ. وفي مسيرة الفكر الاجتماعي التأريخي وفي مجال العلاقات الاقتصادية.

لهذا فقد أصبح إستمرار محاولات الأخذ في الكثير من تطبيقات تلك الكتب ـ على الأخص لو أخذ بها حرفيا ـ أمر غير ممكن دون وقوع

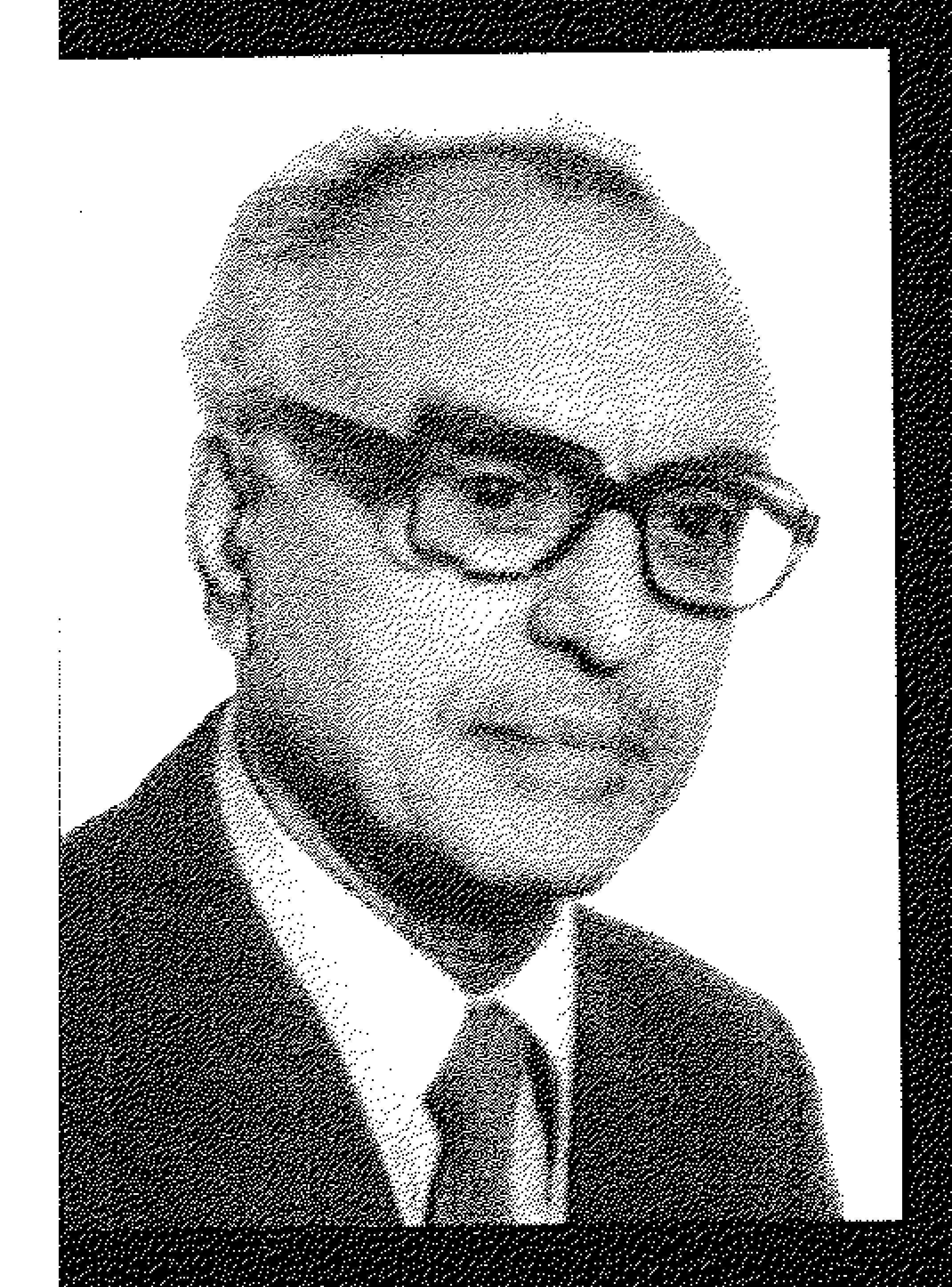
نزاعات عقائدية وصراعات عنصرية وسياسية. فضلا عن ان تلك الكتب لا تملك القاعدة المادية لمسايرة التطور العلمي الصناعي الحديث.

لكن هذا لا يعني ان كل ما جاءت به الكتب المقدسة من تشريعات للبشرية من أجل تنظيم علاقاتها الأولى آنذاك ووفقا لمرحلتها التأريخية ذات الأشكال البدائية المنصرمة، قد فقد من حيث القصد والمغزى جديته كليا ولم يعد يصلح في زماننا الاسترشاد به أو أخذه كواحد من مصادر التشريع الحديث، كلا. فباب الاقتباس والتطوير يبقى مفتوحا. وبقائه مفتوحا لا يشكل بدعة بل ينسجم مع التطور الاجتماعي. خصوصا إذا علمنا ان الكتب المقدسة كانت بدورها قد إقتبست ممن سبقتها من شرائع.وأساطير سومرية وبابلية ومصرية كانت أغراضها تنظيم العلاقات الاقتصادية وتعيين السلوك الفردي والجماعي وغيرها من الأغراض الملازمة للحياة البشرية.

ان الحاجة لتلك الأغراض مازالت باقية ولم تستنفد وان تغيرت أساليب تحقيقها من حقبة تأريخية لأخرى. ان الاسترشاد ببعض المبادئ الايجابية المطلقة الواردة في بعض الكتب المقدسة أمر طبيعي عندما تلبي تلك المبادئ رغبات تطور الشعوب ولا تعارضها وتتضمن ما يحافظ على حقوقها وسيادتها.

ان مثل هذا الاسترشاد ذي الأغراض التطورية التقدمية المنسجمة مع مجرى التطور التأريخي ما هو في الحقيقة إلا تتمة لسلسلة تفاعلات مادية وفكرية متبادلة بين، ما قام به وفكر فيه الانسان السابق وبين ما يطوره الانسان اللاحق، فهو نقض ونقيض نحو الأحسن.

المحتويات



الكتاب والمؤلف

دراسة ثورية في الكتب المقدسة تنطلق من التوراة التي يلمس فيها المؤلف مصدر الفكر الإمبريالي المعاصر. يدعو المؤلف أيضاً إلى إحلال المعرفة العلمية محل الغيبيات وترك الدين للعبادة لا للسياسة، حيث يتوجب احترام عقائد الناس ولكن من غير تسييس واستغلال لهذه العقائد في الحياة السياسية والاقتصادية للدول والشعوب.

المؤلف من أصل عراقي عريق، عاصر تأسيس الحزب الشيوعي العراقي أواسط الثلاثينات وناضل مع الشيوعيين والوطنيين الديمقراطيين في وقت واحد، فكان من محرري جريدة الأهالي منذ عام ١٩٣٢ وهي لسان الحزب الوطني الديمقراطي بزعامة كامل الجادرجي. وانضم رسمياً إلى هذا الحزب ليكون من قادة جناحه اليساري الذي ائتلف مع الشيوعيين في جبهة تصل إلى حد التوحيد. وهو يستوعب ذلك النوذج للمناضلين العراقيين الذين شكلوا القاسم المشترك للوطنية الديمقراطية بزعامة كامل الجادرجي وللوطنية الشيوعية التي قادها الحزب الشيوعي العراقي وفيهم يتمثل تطور حزب الجادرجي ومصداقيته الوطنية الديمقراطية.

يعيش حسن الكرباسي حالياً في المنفى. وقد قارب الثمانين، ويواصل نضاله الفكري والسياسي مع رفاقه وزملائه من الوطنيين العراقيين من أجل تحرير العراق من الفاشية والنفوذ الإمبريالي.

هادي العلوي

تصميم الغلاف : طالب الداوود